# بين نبضتين

حقوق الطبع محفوظة

**الطبعة الأولى**
**١٤٣٦هـ-٢٠١٥م**

**المملكة الأردنية الهاشمية**
**رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية**
**(٢٠١٥/٥/١٩٠٩)**

٨١٣,٩
غنوم، طريف أحمد
بين نبضتين/ طريف غنوم. عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، ٢٠١٥
(١٦٠) ص.
ر.إ.:٢٠١٥/٥/١٩٠٩.
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

**يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبِّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

دار عمار للنشر والتوزيع
عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
dar_ammar@hotmail.com

رواية

# بين نبضتين

طريف غنوم

رابطة أحرار سجن تدمر
Free Tadmur Prisoners Association

بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

أهدي

هذا العمل إلى والدي ووالدتي..

إلى زوجتي وأولادي الذين لم يعرفوا

بعد قصة أبيهم...

أهديها إلى روح الشهيد عبد المعين السيد..

أهديها

إلى كل قطرة دم وكل صيحة ألم...

أهديه إلى الأبطال من أمتنا العظيمة..

# تمهيد

كتبت ما أستطيع أن أتحمل كتابته لأن الحروف أوشكت تقتات من أعصابي من جديد... والجمل تنقلني إلى أماكن طالما حاولت أن أتناساها..لأركب أرجوحة الخوف كلما تقدمت في الكتابة لأُحِسَّ بالسياط وألمها تهوي على ظهري وأنا مُنكَبٌّ على دفتري الصغير أُحمِّله آلام أمة، ثم أُغلقه سريعاً خشية أن ينتقل الألم إليَّ من جديد.

البدايات دائماً صعبة وقاسية... وكلما حاول قلمي أن ينزف على الورقة البيضاء فقدَ وعيه.... وغطَّ بأحلام قاسية... ليبتعد رويداً رويداً عن حبيبته البيضاء..... وما يلبث الشوق حتى يشتعل من جديد ويعاني الوجد والبعد وينأى به الزمان إلى أن يحين الملتقى مرة أخرى لينزف أو يحاول أن ينزف... لأن شوقه مربوط بذكريات وأيام طِوالٍ لايستطيع الشوق إلا أن يفضي بآلامه وذكرياته فيتحول الكلام إلى نشيج والنشيج إلى نزف وإغماء طويل... لكن صحوته هذه المرة مصحوبة بلهفة... وخوف..... لهفة للورق الذي يحفظ الذكريات الهاربة من بين أصابع الزمن.... وخوف من أن يطحنه الزمن قبل أن يسطر تلك الأيام..... هذا هو قلمي كالخيل الحَرُون ربما معقود بنياط قلبي أو ربما له مع قلبي حديث خفي، فالقلم والقلب لايختلفان إلابحرف واحد فاتفقا أن يمده القلب بالمداد وأن يسطر القلم آلام الذكرى وذكرى الوداد.

كنت في السادسة عشرة من عمري، متوقد النظرة، قوي البنية، سريع الحركة، مقطب الحاجبين، حاد الطباع، وسيم الطلعة.. متفوقاً في دراستي وكنت أستعد للشهادة الثانوية عبر بعض الدورات التعليمية، التحدي بالنسبة إليَّ شيءٌ ممتع فالدراسة تحد من التحديات التي تواجه الشاب الطموح، الحياة تشتعل في عيني ببريق جميل لايخفى على أحد...

أواخر السبعينيات في سورية الشارع يحترق ويُحرق... والأيام تتوالى مسرعة ثقيلة ومخيفة، وكم من ليال قضيتها متيقظاً شارداً أخاف من المقبل من الأيام ربما لأنني التزمت بجامع ما أو اصطحبت أصدقاء مختلفين نوعاً ما من الناحية الدينية وتعاهدنا أن نجاهد في سبيل الله... لاأعرف شيئاً وأعرف كل شيء، فالثقة في نفسي لا تقاوم ولا يَحدُّها زمان أو مكان... هكذا الشباب دائماً.

أقبل صباح ذلك اليوم من بين أثواب الظلام متسربلاً بوشاح من الحزن لم يكن مثل كل الصباحات بل كان محمَّلاً بأزيز الآليات التي كانت تحيط ببيتنا الجميل، والجنود الملثمون المدججون بالأسلحة الخفيفة والثقيلة يتنقلون بخفة وحذر وهناك من يتكلم معهم بالإشارة

لينتشروا انتشاراً صحيحاً، كنت ذلك الحين نائماً على الشرفة المقابلة لبيتنا وقد أيقظني ذلك الحفيف فرفعت رأسي بحذرفإذا بي أراهم وهم يقتادون والدي إلى خارج البيت ويسألونه عني.....صوت والدي متهدج هادر.

وماذا تريدون منه ؟

نريد أن نسأله سؤالاً ونتركه.

إنه نائم في البيت المجاور.

التفت الجنود إلى حيث أشار والدي فانطلقت إلى الداخل أحاول الهرب من الشرفة الخلفية ولكن البنادق كانت تحاصر المنزل وما هي إلا ثوان حتى كاد باب البيت أن ينكسر من الخبط واللبط....فتحت الباب فامتلأ البيت بالجنود وسألني أحدهم : هويتك؟؟؟... قدمت الهوية لهم فقال :امش معنا

فقلت: ألبس؟

بسرعة...

كان أخي الصغير نائماً معي واستيقظ خائفاً وبكاؤه أشعرني بأنني الكبير فقلت له... لاتحزن سأعود... نزلت الدرج فأدخلوني سيارة مصفَّحة، وقف والدي أمامهم وفتح ذراعيه

أين تأخذونه؟؟؟؟

ابتعد عن الطريق هيا.

وتقدمت السيارة إليه، استجاب والدي لصرخاتهم وسارت السيارة بسرعة تهدر كوحش ابتلع فريسته لتوه،أغلق والدي الباب الحديدي وكان صوت الباب آخر ما سمعته عن البيت.

بخفة المحترفين وُضع القيد في يدي والحلقة الأخرى بيد راكب آخر....نظرت إلى من يجاورني فارتدَّتْ إليَّ النظرات كالصاعقة على رأسي لأنني علمت من حديثهم أنه من قادهم إلي وهو صديق لي في المدرسة والجامع... في الطريق سألوني إن كنت أعرف فلاناً من أصدقائي فأجبت بالنفي....

موكب السيارات المدججة بالأسلحة ينطلق بسرعة جنونية إلى أن وصلنا إلى مبنى.... دُفعنا بفوهات البنادق إلى خارج السيارة... وجُررنا عبر دهليز طويل حيث يجلس رجل ذو شاربين غليظين... جُرِّدتُ من كل ما أملك... الساعة..الهوية.. النقود..النطاق حتى الحذاء، ثم دُفعت ومن معي إلى غرفة أخرى حيث الجلاد شيخو وبيده بلطة يلوِّح بها أمام أعيننا ولا يتورع أن يضرب بها، وقد علمت فيما بعد أن هذه البلطة قد غنموها من أحد البيوت في مدينة حلب لم أميز من بين المعتقلين معي إلا صديقي القديم. وفجأة

هوت البلطة على كتف أحدهم فصرخ صرخة مدوية وكأن قلوبنا هوت على الأرض مضرّجة بالخوف الرهيب...

ثم دُفعنا إلى مكان صغير وحقير حيث دورات المياه...

تجمع أكثر من اثني عشر شاباً في هذه الردهة الصغيرة وتُركنا برهة من الوقت فحاولت أن أتكلم معهم إلى أن فاجأنا أحدهم يُدعى أيوب ويَزيدُ طوله على المترين أو ربما هكذا رأيته، فهوى بكفه الغليظة على وجهي.... لقد رأيت نجوم الظهر التي كان الناس يتندرون بالحديث عنها.

شاهدتها اليوم بأم عيني... وهجم هذا الوحش علينا يلكم ويرفس دون رحمة حتى أشفى شيئاً من غليله بعد وابل من السباب الفظيع....وقفنا نصف ساعة تقريباً ننتظر القادم المجهول إلى أن نادى ذو الشاربين الغليظين....

طريف غنوم؟؟

حاضر

إلى الزنزانة رقم (٢) تحرك يا....

نظرت إلى الأبواب الحديدية السوداء وإلى الأرقام المكتوبة عليها بخوف وذعر فأمسكني السجان من عنقي وجرني إلى الجحيم رقم (٢)

فتح الباب ودفعت إلى الداخل.... الظلام مخيم إلا من بصيص نور متهالك يتسلل خائفاً من تحت الباب وعبر الشبك الحديدي العلوي....الغرفة متران بمترين تمتد بواري الشودير الساخنة عبر سقف الغرفة..

تعصر هذه الزنزانة اثنين وثلاثين موقوفاً..لم أستطع أن أميز أوحتى أستقري ملامح أحد.

لم أجد موطئاً لقدمي... وقفت جانباً فإذا بصوت هادئ مريح:

حاول أن تجلس فالشغلة طويلة...

نظرت إلى مصدر الصوت فإذا هو رجل مكتنز الجسم، ممتلئ الوجه، ذوساق واحدة وهذه الساق قد انتفخت وامتلأت بالدماء والقيح.... كان شيئاً مخيفاً حقاً....

وجدت لنفسي موطئ قدم مقابل الباب، شبر لاغير وقفت ساعة من الزمن، الأرض مغطاة بالعرق نصف سنتيمتر تقريباً والهواء نتن وثقيل حاولت أن أسحب أنفاسي بصعوبة بالغة... حتى بلغ مني التعب ما بلغ فحاولت أن أجلس....قرفصت واضعاً رأسي بين ركبتي وضاماً ساقي بذراعي وبدأت أتحسس الواقع الرهيب.....

# اليوم الأول

سمعنا صوت الجرس فتحفَّز الجميع، فهذا يعني بدء التحقيق....صوت أقدام ثقيلة تقترب وأصوات التعذيب تتعالى.... أدخل السجان المفتاح عبر القفل ناظراً من خلال نافذة حقيرة.... ونعق بصوته المخيف... طريف غنوم

- حاضر .....
- اخرج

بالكاد استطعت أن أقف، عُصبتْ عيناي ووضع القيد بيدي وقادني أحدهم إلى مكان ما... غرفة التحقيق....

- اسمك..؟؟؟
- طريف غنوم
- هيا تكلم إنك منظم تكلم عن مجموعتك.
- لست منظماً وليس لي علاقة بشيء.
- من هو عبد المعين السيد.
- لا أعرف عمَّا تتكلم ؟

- أبو مصعب يا حقير...
- إنه استاذ رياضيات كان يعطينا دروس التقوية.
- اخلع بنطالك..هيا اشبحوه.

خلعت بنطالي مرتجفاً من الخوف

- اخلعوا عنه العصابة.

نزعوا العصابة عن عيني... رأيت أمامي رجلاً أصلع طويلاً عريضاً يضع طوقاً على عنقه يجلس خلف المكتب... قام المحقق من خلف مكتبه وقال:

- انظر يا طريف إلى هذا الكأس الممتلئ....

ورفع إبريق ماء بيده وأخذ يسكب على الكأس... الماء ينسكب على الأرض....

- انظر....هذا الكأس هذه قدرته على استيعاب الماء فإذا زدنا عليه أفرغ ما فيه.وكذلك أنت... وأنا مستعد أن أقتلك حتى تُفرغَ ما عندك من معلومات.
- ولكني لاأعرف شيئاً...
- ضعوه على التخشيبة

وُضِعت على التخشيبة وقُيدت ذراعاي وساقاي وبدأت العصا تهوي على قدميَّ وأنا أصيح وأستغيث وأشتم....وهكذا وبعد نصف ساعة من الضرب الشديد، قال المحقق:

خذوه إلى زنزانته....

عدت مسربلاً بدمائي زاحفاً تلاحقني الركلات واللكمات من كل جهة وتقودني إلى زنزانتي....وأخيراً أُغلق باب الزنزانة واستقبلني الجميع بكلمات الصبر والمواساة...

جلس أحد الشباب قربي وأخذ يدلك قدمي الممتلئتين بالدم..... خجلت من كرمه وشكرته وأنا أكبت الألم الرهيب ... جلست بالقرب من الجدار وهاجمني البكاء فبكيت... وبكيت وبكيت كما لم أبكِ من قبل قطّ، ثم غفوت قليلاً لأرى في منامي أنني في الجنة وأرى الأزهار والورود والأقاحي... استيقظت على قرقعة السجان وهو يفتح الزنزانة من جديد ويدخل أرغفة سوداء وقصعة مليئة بالمرقة... ترك الطعام بجانب الباب ثم توافد الجائعون إليه رويداً رويداً... شفتاه تتحركان بتسبيحة أو تهليلة دون توقف أو ملل إنه ذلك الرجل الممتلئ الجالس ذو الساق الواحدة مايلبث أن يقول:

صلوا على النبي فإن الصلاة عليه ستكون برداً وسلاماً عليكم...

أخذت أتأمل الحضور... كل واحد منهم يخبئ قصة وخوفاً وهلعاً لايوصف وأنا هنا... لامؤنس إلا الله.....لا أمٌّ تُربِّت على جراحي ولا أبٌ يُهدِّئ روعي....

أكاد أختنق فالهواء قليل والحر جهنم والموقوفون كُثُر... انقضى اليوم الأول بكل ما فيه من ألم...

# اليوم الثاني

ابتدأ صباحه أو ليله... فالليل والصباح ضوء مصباح راجف يرسل أشعته إلينا وكأنه يتمنى ألا يزور وحشة هذا المكان...

قُرع الجرس... استعدَّ الجميع.....سمعنا أصوات الزنزانات الأخرى تُفتح وُتغلق وأصوات تمزق أحشاء الصدور... اقتربت أصوات الأقدام... فُتحت الزنزانة وصاح السجان:

.. طريف غنوم ؟؟؟

استطعت الوقوف بصعوبة.عُصبت عيناي وأدخلوني إلى الغرفة ذاتها

ستتعب نفسك كثيراً....اخلع ثيابك.

وقفت متسمراً متجاهلاً الأمر لعلني لاأكون المقصود بالأمر فإذا بالكبل الرباعي يهوي على جسدي... خلعت ثيابي فانزاحت العصبة من عيني قليلاً وقال لي الجلاد: ضع يدك على التخشيبة ومإن وضعتها حتى هوى ببلطته بوحشية بالغة وماكان مني إلا أن سحبت يدي سالمة من بطشه. فجن جنونه وصرخ :

- انبطح يا....

استلقيت وربطت يداي وساقاي ووضعت الكلاليب الكهربائية بأماكن حساسة وكانت عضة الكلابة تعذيباً بحد ذاتها، وأخذ الكهرباء يسري في جسدي وأصرخ ولا أعرف كيف ينطلق الصوت مني وأخذ المحقق إبريق ماء وسكبه علي حتى يسري الكهرباء في جسدي بشكل مروع وأصرخ بأعلى صوتي أريد أن أعترف !!

فيوقف الجلاد الكهرباء، فأقول:

- والله لا أعرف شيئاً

وبعد ساعة من التعذيب المرير قال المحقق:

- أنت تتعب نفسك هباءً أدخلوا ساهر

فدخل صديقي القديم بوجهه المكفهر وقال لي:

- تكلم لقد اعترفت بكل شيءٍ....

هنا انهار الجبل وانهد السد ليغمرني طوفان الحزن ( كل شيء) ما معنى كل شيء تداخلت المعلومات في رأسي لم أعد أستطيع أن أركز كلماتي أو أن أعطي الأولوية لكلمة أو أختها فهو يعلم عني كلَّ شيء....

- فصرخت: أعترف... أعترف
- هل أنت منظم؟؟؟
- نعم
- اسمك الحركي ؟؟
- مراد
- أميرك ؟؟
- أبوعابد
- اسمه؟؟
- لاأعرف
- مجموعتك؟؟
- علي..إبرهيم..عدنان
- سلاحك؟؟
- ليس لدي سلاح
- ضعوه على التخشيبة...

ودام التعذيب ساعة من الزمن وتمنيت أن يكون لدي سلاح وأعطيهم إياه وأنتهي من هذا التعذيب القاتل....

عدت إلى زنزانتي مسربلاً بدمي ومحفوفاً بذلي فقد ضاع الأمل المنشود الذي كنت أتكتم عليه وكيف أستطيع أن أكتم سري بعدما أطلعهم على كل شيء هذا الصديق.

زنزانتي أصبحت الملاذ الآمن والحضن الدافئ رغم قذارتها فهي الحاجز بيني وبين الوحوش الضارية التي تنتظر أن تلغ من دمائنا...

# اليوم الثالث

بدأت أصحومن غفوتي المتقطعة لأعتاد شيئاً فشيئاً على قذارة المكان وبراءة القسمات والخوف الممعن داخل العيون....هناك من يواسيني دائماً... وجوه لاأعرفها ولكني عرفت من حديثها الطِّيبةَ والطمأنينة.

الضوء الخائف الخافت المتسلل إلى زنزانتنا لن يستطيع إلا أن يمالئ السجان ليرسم على الجدار المقابل له قضبان الحديد... تذكرت والدي كيف كان يرسم بالظل لنا على الجدار أشكالاً رائعة كان حينها ضوء الشمعة جميلاً جداً لأنه يذكرنا دائماً أن أبطال سورية يخوضون حرباً مقدسة ضد العدو الإسرائيلي في حرب تشرين وأننا نحاول أن نساعدهم بأن نحتمل الظلام من أجلهم أما اليوم فإن هذا الظلام ظلم وقهر.

في هذا اليوم لاحظت وجهين جديدين أو ضيفين جديدين.. الأول شاب يرتدي بزّة سوداء وقميصاً أبيض فأثار فضول أحد النزلاء فسأله

- ولماذا القميص الأبيض ؟؟

- يا جماعه والله أنا عريس وهذا هو اليوم الأول مع عروسي!!
- خود حسبك الله ولاتفكر كتير.

أما الثاني فكان في الستين من عمره، مهيباً في قسماته، خائفاً في حركاته، متأبطاً حذاءه... تعرَّف عليه أحدنا ووصلتنا التمتمات تنبئ بأنه قاض في القصر العدلي... حاولنا أن نتجاذب أطراف الحديث معه ولكنه كان حذراً لايتكلم ولا يأكل... وعبر هذا الجو الخانق حاول أحدنا أن يستحوذ على مسرب الهواء من تحت الباب بأن استلقى أمام المنفذ وسد الهواء كلياً مما أثار حنق الآخرين وكادت تحدث مشاجرة لولا صوت الجرس الرهيب الذي ينذر بقدوم السجان..

اصطف ثلاثة من الجلادين مسلحين بأكبال رباعية من النحاس المجدول وصرخ أحدهم:

- إلى المرحاض هيا معكم ثلاث دقائق.

أجسامنا مهترئة بسبب العرق والقذارة التي نعيش فيها وأخذ الجلادون ينهالون بسياطهم على ظهورنا وأصوات الألم تتعالى هنا وهناك.

وتلاحقنا خطوات الجلاد وما تفتأ حتى تهوي بالسياط على أبواب المراحيض معلنة انتهاء المدة لقضاء الحاجة لنعود بعدها إلى الزنزانة الرهيبة.

نلت نصيبي مثل الآخرين.... وبعدما حل الظلام وألقى الهدوء علينا ثوب الطمأنينة فتح الباب بسرعة دون سابق إنذار وأدخل السجان مروحة وترك الباب مفتوحاً.

- إذا سمعت أية حركة أو صوت فسوف تكون نهايتكم.. مفهوم؟؟
- حاضر.

« كانت هذه المبادرة وكأنها فرج من السماء»

ذهب السجان إلى عمله ورحل.... فهمس أحد الإخوة قائلاً : ربما بدأت رائحتنا تؤثر عليهم.

الهواء داخل الزنزانة متعفن للغاية فأكثر من ثلاثين فرداً يبولون في أكياس النايلون وينامون وينزفون ويتقيؤون...

ما كنا فيه لايمكن أن يكتبه قلم أو تنقله جارحة أو يتحدث به لسان..تحسست الحائط الذي أستند إليه فإذا به مضرج بكتابات ورسوم..قرأت مما قرأت «ذكرى الدماء الملتهبة» (سمية)... أجلت ببصري عبر الضوء المقهور فرأيت رسوماً مرسومة بالدم وقرب الباب قرأت الآية الكريمة ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت]

ما أجملها من آية كانت برداً وسلاماً على قلبي، الرجل ذو الساق الواحدة يوزع علينا الأوراد والتسبيحات ويقول وهو مبتسم:

- اثبتوا... اثبتوا فإن مَنْ قبلكم قد ثبتوا على الحق وقد أصابهم أكثر مما أصابكم.

كان بيننا شابان واقفان معظم الوقت يُؤثِران الآخرين بمكانهما الصغير..فقلت في نفسي:

«يا إلهي إننا بخير أيوجد في هذه البقعة النتنة من يؤثر الآخرين ويبذل ما بوسعه؟!»

# اليوم الرابع

الزنزانة على موعد مع السجان هذا الصباح .. لقد اتفقوا علي هذه المرة واقتادوني إلى غرفة التحقيق وقد ألقي القبض على بقية السريَّة.

ومن بين المعتقلين إمام جامع.. قال له المحقق:

- قف أمامهم وردد تحية العلم.

فصرخ الإمام: إستاااارح..... استاااعد... أمة عربية واحدة....

فصرخ المحقق:

- رددوا يا.....

فرددنا بصوت منكسرٍ:

.. ذات رسالة خالدة...

صوت امرأة يشق فضاءات العقل مخترقاً ضمير الحر مستقراً في قلب مؤمن منتفض... العصي تنهال عليها وصوتها يخدش الألماس ويخترق آذاننا يا للعار أيمكن أن نشعر بالأسى إذا كانت حرائرنا

تحتمل كل هذا العذاب..لم نعد نبالي بالسياط أو بالعصي لقد أُصبنا بصدمة أشعلت فينا القوى الكامنة الرهيبة... وبعد أن التقطت لنا الصور الأمامية والجانبية عدنا إلى زنزانتنا...

الرائحة النتنة المنبعثة من زنزانتنا تدفع السجان الى الابتعاد عنا عدة أمتار لذلك تركنا السجان هذه المرة ندخل وابتعد عنا إلى غرفة ثانية. ركضت امرأة حرة من السجينات المسلمات إلينا مغتنمة لحظات انشغالهم عنا وقالت وهي قابضة راحتيها «اثبتوا يا رجال الله اثبتوا إن الله معنا»

ثم ركضت متجهة إلى زنزانتها... اشتعلت فينا البطولة من جديد وبدأنا نصحو من أزمتنا القاتلة ونتحدث ونتعارف شيئاً فشيئاً.

# اليوم الخامس

الهرج والمرج ساد اليوم في الفرع.. ربما كان احتفالاً صاخباً.. الموسيقى عالية وأصوات السجانين تترنح من السكر والعربدة.. لابد أنه صيد ثمين قد نالوه اليوم..لقد صدق ظننا عندما تناهى إلى مسامعنا أن المدعو سهاد قد أصبح في قبضتهم ولكن من هو سهاد؟؟؟ إنه قائد جناح التنظيم السري داخل مدينة حلب وهم يحتفلون اليوم بالقضاء على هذا التنظيم.

داخلنا الحزن وانتابنا الأسى لأننا كنا ننتظر ساعة الصفر وبعد ساعات سمعنا أصوات سباب وشتائم رهيبة فعندما ذهب أحدهم ليطمئن على طريدته فإذا به يشاهده قد شنق نفسه في الزنزانة...

أفقدهم الغضب السيطرة على أعصابهم فهجم الوحوش علينا بأسلحتهم فما من موضع من أجسادنا ينال منه السوط حتى ينفلق إلى ضفتين من العذاب... انتهى الليل بما فيه من آلام... لننتظر النهار.

# اليوم السادس وحتى العاشر

جلست متكوراً أعدُّ ساعات اعتقالي... فتشتبك الساعات بالذكريات، أحاول أن أستجدي خيالي فيجرني الواقع إلى آلامي فالتقرحات قد ملأت جسمي وهي تلسعني كلسع النحل.. تحسست الجدار... لابد أنه يبكي لأنه يسمع ويرى كل هذا العذاب ولا يستطيع أن يتحرك وخلف الجدار يوجد أحرار يقاتلون في سبيل إخراحنا من هذا البؤس فالشكيمة والعنفوان لن ينكسرا ونحن ننتظر وقلوبنا في الجنة وأجسادنا في النار ....الجرس يرنُّ ومع رنينه يخرج أشخاص ويعودون بوجوه مختلفة... اقترب أحد السجانة من الباب وصرخ:

... طريف غنوم

- حاضر..

سمعت همسات من هنا وهناك... إفراج إفراج....

قال السجان:

- اخرج.....

ووضع العصابة على عيني والقيد بيديَّ ثم اقتادوني من عنقي إلى غرفة ومن ثم إلى رواق وغرفة داخل غرفة تحسست بقدمي الأرض فأحسست أنها مفروشة بالسجاد والهواء البارد أنعشني... فثيابي مبللة بالعرق والعفونة القاتلة أخذ الهواء يعيد الحياة إلي ويذكرني بأنني إنسان في هذا الوجود...

وقفت والعصابة على عيني ولا أسمع صوتاً أو أمراً أو نهياً.. حاولت أن أختلس النظر ولكن عبثاً... الانتظار موتٌ أحمق شرير يدهس خلايا دماغي فيشلني... إلى أين..هل هناك أحد يرافقني في هذه الغرفة....لقد أنهكني الوقوف وشعوري أن أحداً ما في زاوية ما يراقبي أو يتهيأ لصفعي يجعلني أفقد الصبر الجميل الذي لم أتخل عنه... وأخيراً:

- إجلس مكانك...

جلست حيث أنا...

ثم سكت الصوت. .

دقيقة... دقيقتان...

- تكلم.. اعترف أنت لم تتكلم بعد، عن كل ما تعرفه.

تكلمت عن كل ما لدي!!

- هذا الكلام أعرفه أريد أن أسمع ما لاأعرفه.

انتابتني لحظات ضعف رهيبة كدت أنهار.. وأنهار إلى أين؟ إلى الهاوية فهناك الكثير والكثير من الناس الأبرياء الذين أعرفهم وربما هم يعتبرونهم من المجرمين.. لحظات وأحسست بالسَّكينة في قلبي وقلت بثبات:

- لقد قلت ما أعرفة إلا إذا أردتموني أن أكذب
- هل أنت منظم؟
- نعم

وهل....وهل....؟؟

أحسست كأن أحداً ما أعرفه من جماعتهم موجود في غرفة التحقيق وشعرت أن الأسئلة تهم الزائر أكثر من المحقق... هدد المحقق وتوعد ولكني بقيت ثابتاً على كلامي فكل كلمة تتكلم بها تجر كلمات ومصائب حتى يئس المحقق مني وقال للسجان:

- خذه إلى غرفته.

الجوع والعطش والحر والانتظار وحوش تهاجمنا لتنال من عزائمنا، التفت إلي أحمد أفندي ممازحاً :

- يوجد شيء أحمر مدور نصنع منه السلطة هل تعرفه ؟؟

ابتسمت في وجهه وقلت له :

- لاأعرفه.
- فقال : هانت وغداً أو بعد غد سيأخذوننا إلى السجن المركزي وهناك ستعود إلينا أرواحنا برؤية أهلنا.
- فقلت متسائلاً: ومتى؟؟
- حتى ينتهي التحقيق معنا.

تمر الساعات بطيئة ثقيلة تمسك بخناقي وتحبس أنفاسي فأنظر إلى الجدار فتضيء الآية الكريمة في وجهي ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت]... أهي الفتنة إذاً... لماذا لم يأتوا ليخلصونا..

أختنق بصرخة مكبوتة...

ماذا حدث لهم ؟؟!!

وفي اليوم التالي..ضجة وصخب وعناصر من الأمن ولوائح أسماء.....فتحت الزنازين وبدأت الأسماء تذاع....

- طريف غنوم...
- حاضر..

وانطلقت إلى حيث يجب أن أقف..دخلنا رواقاً طويلاً ثم انتظرنا ساعتين ثم جاءت الأوامر بالصعود إلى الباص..الهمسات تطير في ما بيننا «إلى السجن المركزي يا شباب»

الشهر هو أيلول وفي الصباح يحبنا أيلول فيرسل بشائره على العباد والبلاد... المطر أهو يبكي علينا أم يواسينا أحسست أن السماء تكلمني وأكلمها فتقول هل اشتقت إلى طلعتي، نظرت وكأني أودع السماء والشوارع والأبنية الصامتة... التلاميذ يذهبون إلى مدارسهم... تذكرت مدرستي ورفعت يدي المقيدتين إلى نافذة الباص... لماذا لا أدري ربما لأقول لهم هاأنا ذا... ها أنا البطل السجين في سبيل الله والوطن.. اغرورقت عيناي بالدموع وتساءلت: إلى أين سينتهي بنا المطاف؟.

كان الباص مسرعاً إلى غايته والعصيُّ فوق رؤوسنا تلوِّح بالعقاب..

- رؤوسكم تحت المقاعد..

أخذت العصي تنهال علينا...

وقف الباص أمام حاجز للتفتيش ثم انعطف داخلاً إلى السجن المركزي.

**السجن المركزي.**

وقع نظري على البناء فتذكرت شيئاً من الماضي عندما كنا في نزهة ومررنا بالسجن المركزي ولم أكن أعرف ما هو فسألت والدي:

ما ذلك البناء ؟؟؟... أود رؤيته من الداخل.

الله لا يقدر يابني..إنه من الخارج خام ومن الداخل سخام...

أفقت من شردتي على صوت آمرٍ.

- إنزلوا ونظركم إلى الأسفل..
- اصطفوا اثنين اثنين..

اصطففنا وبدأ أحدهم بقراءة الأسماء ثم أدخلونا عبر بوابة كبيرة إلى ساحة تجمعنا..همس أحد الإخوة:

- يوجد استقبال؟

.. لم أدر ما هو الاستقبال حتى جيء بالدولاب والكبل وبدأ الذئاب باصطيادنا الواحد تلو الآخر... لامفر ولا مهرب..توكلنا على الله..الشباب ينطلقون من تلقاء أنفسهم ومَنْ لفت انتباهي وأثار إعجابي عمر... هو من أغاظهم ولم ينطق بكلمة تعبر عن ألم أو خوف... انقضى الاستقبال بكثير من الألم وكثير من الصبر... ثم اقتادونا إلى أجنحة السجن... دخلنا رواقاً طويلاً.. الغرف المُصفَّحة بالحديد إلى اليسار... فُتحت إحدى الغرف ودُفعتُ ومن معي إلى

الداخل... أغلقت الأبواب ورحل السجانون، ثيابنا متسخة وأجسادنا قذرة لكن آمالنا وعزائمنا قوية..كانت الغرفة مليئة بالسجناء القضائيين الذين نرى أمثالهم بالأفلام... جلسنا منهكين نتحسس آلامنا فحاول أحد القضائيين أن يستأسد علينا بأوامره.. لم يدر أن تحت هذه الثياب الرثة المهترئة نموراً مفترسة ووحوشاً ضارية تلتهم من يظلمها ولو بعد حين،تحفز الجميع فصاح رجل ضخم يجلس في الزاوية:

- .. دعوهم لا أحد يؤذيهم

فامتثل القوم وشيئاً فشيئاً اتخذ أحدنا المبادرة وتكلم مع زعيم القاووش عن وضعنا وتهمتنا ومن نكون... كان من بيننا ثلاثة أطباء وأربعة مهندسين وخيرة المجتمع وصفوتهم... فتفهَّم الرجل الوضع وقدم لنا الطعام وأكرمنا تلك الليلة.

وفي اليوم التالي اقتضت الأوامر بعزلنا في جناح خاص... عشر غرف في كل غرفة اثنان وعشرون موقوفاً..

# الشهر الأول

العاشر من أيلول ابتدأ مشوارنا في هذا السجن لكل واحد عازل وبطانية؛ وقف رجل ضخم كان معنا وقال :

- يالله يا شباب أرونا همتكم في البداية دعونا ننظف المكان ثم ننظف أنفسنا...

وبعد ساعتين من العمل بدأت المراسلات بيننا وبين المهاجع الأخرى وجاءنا المدد بالطعام والدواء والملابس..وأكلنا كأن لم نأكل من قبل ثم غططنا بنوم عميق.. أبو صلاح ذلك الشاب الكردي أشقر الشعر واللحية..عيناه زرقاوان نقيتان بنقاوة سماء الجبال وصبره وعزيمته منحوتتان من الصخر الأشم... عبد الرحمن شعلة من النشاط والكبرياء... أبوعجاج يعرف من وجهه جمال الصحراء وقسوتها وعندما يتكلم تتعلم منه رقة الحديث وأصوله..أبو رواحة بلحيته السوداء ولكنته الرقاوية وعينيه البراقتين تدرك أنك تتكلم مع ملائكة متجسدة ببشر.. أما نوزت العنصر في الأمن الجنائي فهو المسؤول عن تأمين الهويات للملاحقين من قبل النظام..أما عمر فله قصة لا تنتهي مع مرور الزمن ومن أراد أن يتلمس الإيمان واليقين

فليصاحب عمر فبقربه تهون المسائل وتنحل الأمور... أحمد إمام جامع الرحمن وخطيب مفوهٌ، أبرص البشرة، قوي البصيرة... وهكذا جلس كل منا على فراشه يعرِّف عن نفسه ثم ابتدر أحدنا الحديث :

- إخواني يقول رسولنا ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم» ونحن هنا بين أيدي الظالمين لا نريد إمارة أو شيئاً من هذا القبيل ولكن نريد واحداً منا ينظم شؤون المهجع والعمل.
- نِعم الرأي.
- لمن تصوتون؟؟..

لم يُجِبْ أحد.

- فقال أحمد: أنا أرشح أبو عجاج

فوافق الجميع..

حاول أبو عجاج أن يتنصل من المسؤولية ولكن عبثاً

بدأت الحياة ترسم لنا أنموذجاً رائعاً... نستيقظ عند صلاة الصبح ونقرأ بعدها سورة يس ثم نصلي الضحى وفي المساء نتحلَّق للإنشاد والذكر وحفظ القرآن..

لم تدم بساطة المشهد هكذا فقد بدأت التعقيدات ترسم طريقها إلى حياتنا، فبينما كنا نصلي جماعة دخل السجان ومعه بعض

المسؤولين... الإمام كان عمر الذي لم يلحظ وجودهم أو حتى يسمع قرقعة المفاتيح وعندما اعتدل عمر من ركعته الأخيرة رفع يديه إلى السماء وحمد الله وأثنى عليه وبدأ بالدعاء على الظالمين: «اللهم أهلك الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين..اللهم عليك بالنصيريين الحاقدين ..اللهم أهلك حافظ الأسد ومن والاه.....»

تقدم السجان أبو أحمد الذي سميناه بأبي شحاطة ومعه أبو بشار «أبو شحوار»وأخذا أسماءنا وهددوا وتوعدوا ورحلوا بانتظار المساء..وجاء المساء مثقلاً بالألم والصبر... أقدامي لم تسترد بعد جلدها الطبيعي حتى تنال عقاباً رهيباً... وما إن عدنا إلى غرفتنا حتى استغرقنا في النوم...

بدأت عيوني تتفحص المكان فأمام الغرفة رواق ذو نوافذ تطل على باحة يستمتع بها السجناء القضائيون ومن خلال نافذة المرحاض نطل على عوالم أخرى، فهي مركز الاتصالات ومنفذ التموين ومنبع الأخبار ومن خلال هذه النافذه تكلمنا مع الأجنحة التي تقع خلف أجنحتنا وعلمنا أن النساء المعتقلات قد جُمعن في الغرفة التي تقع خلف غرفتنا..... ولحسن الحظ أن أبا رواحة عثر على زوجته المعتقلة معه فأمست النافذة تصل الأرواح المشتتة وتجمع القلوب العاشقة وتشهد على قصة حب ووفاء...

ساعات من الليل الطويل وخلف قضبان الحديد وفوق جدار عال وعبر ضوء خافت..كان أبو رواحة ينصت لها بحزن وألم...

- اصمدي ياامرأة فإن الله وعدنا الجنة «يقول لها أبو رواحة»
- لاعليك فإنني أقوى مما تتصور...
- ستخرجين قريباً عليك بتربية طفلنا كما تعاهدنا.
- سنخرج معاً إن شاء الله، لاتعقد الأمور أكثر... سأنجب الطفل وأنت معنا إن شاءالله.

اغرورقت عينا أبي رواحة وهو يعلم أن الأمنيات كثيرة ولكن الواقع يسير باتجاه آخر... طالما تنقضي ساعات من الليل وهما كعاشقين يقلبْن صفحات الحب والجهاد ويتخلل تلك الساعات أن ترسل له زوجته شيئاً مما تطبخه بعد أن تعلِّق القدْر بعصا السلاتة وبعد عدة محاولات يفوز أبو رواحة ويدخل علينا فرحاً بما قدمته له زوجته وكأنه طفل صغير...

كلنا أحببنا أبا رواحة فهو ليس عاشقاً لزوجته فقط بل لله ولرسوله إذ كان يقرأ القرآن ودموعه تسقي لحيته وما يفرغ من سورة حتى يشتاق لسورة أخرى وهاهو يقول «اشتقت لآل عمران» ويقرؤها وكأنه يعيش مع آل عمران... تقدم إليه أحمد أبو أنس وقال له: إني أحبك في الله، فردَّ عليه أحبَّك الله الذي أحببتني من

أجله... الكلمات غريبة علي بعيدة عني فكلمة أحبك لم أعتد سماعها من رجل إلى رجل.. وسرح بي الخيال بعيداً إلى أن لاحظ أبو أنس ابتسامتي الساخرة فقال:

- لقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ أنه من أحب أخاً له في الله فليخبره.

هكذا أنا دائماً تفضحني ملامحي قبل أن أتكلم لأن ملامحي واضحة التعبير جلية المعالم... هززت رأسي بالإيجاب وكأنني استحسنت هذه العبارات وأعجبتني الفكرة الجديدة وبدأت العلاقات تتطور فيمابيننا من التعارف إلى الانفتاح فالمصارحة.

كلمتان يهون أمامهما كل شيء وهما الإسلام وفي سبيل الله.. أحسسنا بأننا جسد واحد فنحن إخوان متحابون في سبيل الله... صابرون على قضاء الله..هكذا إحساسي وشعوري بكل بساطة إلى أن اقتربت من أبي صلاح وهو يتناقش مع أبي المكارم حول إقامة الصلاة والصلاة على النبي عقب الأذان..لم أعرف كيف احتدم النقاش واحمرت الوجوه.

قال أبو صلاح:

- ألم تسمع قول رسول الله ﷺ: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار..»

- ألا يوجد يا رجل بدعة حسنة..سنة حسنة ألا يمكنكم أن تفهموا الأمور ببساطة أن الإنسان يمكن أن يتصرف تصرفاً جيداً فيكون له أثر إيجابي على الآخرين فيصبح تصرفه سنة حسنة.
- إن الآية الكريمة واضحة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة: ٣] أهو وحي بعد محمد ﷺ.
- أنتم أيها السلفيون مارقون عن المذاهب متذرعون بالصحيح من الحديث ونسيتم أنكم خططتم مذهباً خامساً وقد أجمعت الأمة على المذاهب الأربعة ومن يخرج عن الجماعة فليس منهم..
- ماذا تقصد..؟؟؟ هل تقصد أنني لست مسلماً؟؟
- افهمها كما تريد...

تدخل أبو عجاج متأخراً..

- الله الله..نحن بين أسنان الموت وأنتم تكفِّرون بعضكم البعض.. هيا كُلٌّ إلى عمله هذا النقاش لا طعم له ولا فائدة اتركوا هذه الخلافات جانباً..انسوها أو تناسوها....

امتلأت عينا أبي صلاح بالدموع وغطى رأسه وسمعت نحيبه ونشيجه الطويل..أما أنا فصدمتي أكبر... مامعنى كلمة سلفية ؟؟ من أنا ومن هم وأين الإسلام من كل هذا..وماهذه العدوانية في النقاش؟؟

وبعد أيام سألني أحدهم:

- هل أنت إخوان مسلمين أم طليعة مقاتلة...؟
- تفاجأت وقلت له: أنا في سبيل الله.
- أعرف ذلك ولكن هل أنت تتبع للإخوان أم للطليعة؟؟
- «لم أكن أدري في الواقع معنى السؤال فأجبته»: لا أدري

أبو عجاج يسمع من بعيد ولا يتدخل إلا عند اللزوم..اقترب إلينا وقال للسائل:

- ومالك أنت يا أخي من هذه الأسئلة الفارغة؟ اذهب إلى عمل نافع غير هذا...

ولكن هذا السؤال أصبح يلح علي... من أنا؟؟وإلى أي جهة أنتمي.. أحسست أنني ضائع لا أدري إلى أين أتجه.. تذكرت أستاذي عبد المعين وكيف كان يجمعنا على المحبة ولا يفرقنا بالأسماء والمسميات..مازالت كلماته وهو يشبك يدي بيده:

- اسمع يا أبا عمار إننا قد تورطنا ودخلنا في معركة إجبارية مع النظام... أرجوكم لا تتورطوا مثلنا إن لك مستقبلاً مشرقاً وإن الدعوة بحاجة إلى من يبقى بجانبها... ولاينبغي أن نكون جميعنا مقاتلين...

وافترقنا على ذلك إلى أن سمعنا خبر استشهاده في مدينة حمص فطار صوابنا ورمينا أنفسنا في أتون المعركة الدائرة....بين الدولة... والإخوان أو الطليعة... لاأدري بعد....نحن الشباب..كل ما نعلمه أنها دولة كفر وحزب البعث هو حزب كافر وعلينا الجهاد في سبيل الله، عندما نادى منادي الجهاد فمن لها غيرنا.

كلمات والدي تصفق في أذني وتعود لتُربِكَ إصراري اللامنتهي:

- يابني إن الجماعات الإسلامية في صراع دائم ولم تتفق قطُّ....
- يا بني إنكم ستكونون مطايا لأطماع شخصية...

ثم تهادى إلي كلام والدتي عندما بدأت مشواري الديني ..

- من هذا الذي تمشي معه ؟؟؟
- إنه عبد الحكيم أبو حميدة.
- وماذا تتكلمون ؟؟
- إنه يتكلم عن ضرورة الصلاة.
- إنهم من الإخوان المسلمين يا ولدي....احذر منهم إن حياتهم كلها بين جدران السجون وأجسادهم تحت سياط الجلادين وطريقهم أشواك ومصيرهم مجهول...

انتابني الخوف وارتعدت فرائصي ورحت وقتها إلى عبد الحكيم وقلت له بقوة:

- إنكم من الإخوان وتريدون أن تجندونا لحسابكم ؟؟؟
- من قال لك ذلك ؟؟
- أمي
- أقسم بالله العظيم إنني لم أنتمِ لحزب أو أعرف أحداً من هذا القبيل.

كنّا وقتها في العام الخامس والسبعين وتسعمائة وألف... ودارت الأيام.

بدأ شريط الذكريات يفرض نفسه علي فهاأنا ذا في مهب الريح لاأدري من أنا وإلى من أنتمي، أثقلت التناقضات رأسي... نظرت إلى أبي رواحة وهو يقرأ القرآن... انتظرته إلى أن انتهى من تلاوته وجلست قربه...

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام والرحمة.
- أريد أن أسألك سؤالاً..
- تفضل يا صديقي

- قالوا لي إنك من الطليعة ولست من الإخوان فهل هناك فرق بينهما؟ وأين أنا من هؤلاء وهؤلاء؟

- أرجو أن لا يشغل ذلك بالك كثيراً مادامت نيتك أن تجاهد في سبيل الله ولكن لكي أريحك.... اقصص علي ما حدث معك في التحقيق دون زيادة أو نقصان.

وبعد أن قصصت له قال أبو رواحة مبتسماً:

- أنتم تابعون للتنظيم الشعبي للطليعة.

تركته والأمر بالنسبة لي ازداد تعقيداً... إذ أن هناك فئتين تنظيم شعبي وغير شعبي ضمن الطليعة...

أمي وأبي لا يفارقان مخيلتي لقد انتزعوني منهما كما تنتزع الروح من الجسد... إخوتي أصدقائي... ثم أفكر أنني هاهنا وعلي أن أفكر بين هذه الجدران وإن شرد تفكيري بعيداً عن هذه الجدران فسوف أتعذب كثيراًوعلي أن أبقى داخل هذا العالم المحروس بالحديد والنار... كلمات أبي رواحة أخذت تحز في قلبي «تنظيم شعبي» أي أنني حتى لم أتأهل لأكون حتى من التنظيم العادي....ربما الأمور أكبر من أن أتحملها وربما أدفع ثمنها باهظاً.

عبد الرحمن يجمع عجو الزيتون المتبقي من الفطور لصنع السبحات لأن هذه الصناعة راجت حتى كنا كلما نأكل زيتونة نقلب العجوة ونتساءل أهي صالحة لصناعة سبحة أم لا وبعد الفرز والتمحيص نجمع ما تبقى ليكون وقوداً لغلي الشاي ...

تطورت صناعة المسابح وانتقلنا من العجو إلى الخرز الذي كنا نشتريه من السجان وبدأنا نجهز هدايا لأحبتنا خارج القضبان..

وما هي إلا عدة أسابيع حتى فتح الباب وصاح أبو شحاطة:

- طريف غنوم..زيارة..

اشتبكت الدموع بالأهداب وتحشرج النَّفس مع الأنفاس وتعثرت الخطوات وتلعثمت الكلمات... أحاط بي الإخوة..كل يقدم لي أجدَّ ما عنده حتى أصبحت بأحلى حلة.

خرجت أخيراً من الرواق لأرى والديَّ خلف الشبك الحديدي... الدموع تسبق الكلمات.. والعيون تتكلم والملامح تحكي قصة عذاب من نوع آخر....وكأنهم هم السجناء وأنا الطليق... حاولت أن أشد أزرهم وأطمئنهم على صحتي وقد تناهى إلى مسمعي أن وجودنا مؤقت في هذا السجن فأخبرتهم بذلك وودعتهم بعد أن أنذرنا الشرطي بأن الوقت قد انتهى ثم عدت إلى غرفتي محملاً بما زودوني به من ثياب وطعام وصور فأحاط بي الأصدقاء وقصصت عليهم أحداث الزيارة حرفاً حرفاً...

كلما تكلمت عن الزيارة أكثر أشعر أني أعيش في لذة مطلقة ثم أستجيب لشردتي.... فأعيد الشريط في ذاكرتي... كانت ملامحهم تحكي معاناة من نوع آخر... كانت أذناب النظام تتردد على بيتنا تحاول أن تمص ما تبقى من أرواحنا..وتنهب ما تستطيع حمله بشتى الطرق الخبيثة...

العشاء اليوم فاخر بكل ما تحمله الكلمة من معنى ففيه أطايب الطعام... إنها أمي وطعامها اللذيذ وكل من يأكل يدعو لأمي بالخير والصحة،كنّا كعائلة واحدة نتقاسم الصبر ونتهادى المحبة وننشد الأناشيد الحماسية ونتحدى كل من يتجرأ على ديننا.....الأمور تسير بيسر ومحبة إذ تحابنا في الله فالصديق هو الأخ والأب والحنان والطمأنينة...

ومرت الأيام سريعة إلى أن وصلت رسالة إلى أبي عجاج... رسالة مكتوبة على النقود برموز مشفرة... رأيته يرفع الورقة ويقربها من الضوء وترتسم على وجهه معان حزينة أحياناً ومفرحة في أحايين أخرى.لم يكن يتكلم كثيراً ولكنا نحاول أن نقرأ من ملامحه شيئاً ونتصيد كلمةً شاردة هنا وهناك كي نفهم ماذا يحدث خلف الجدران...

بدأ السجانة يضيِّقون علينا شيئاً فشيئاً وكأن أوامر جديدة بدأت تأخذ طريقها إلينا..

# الشهر الثاني

بدأ السجانة يهاجموننا بالسياط محروسين بالرشاشات وأبو شحاطة بالذات موعده في العاشرة ليلاً يأتينا وقد أطاح الخمر برأسه فيفتح باب غرفتنا ويوقظنا بهدوء.. من نومنا لصفعنا ومن ثم يقوم بإعادة الغطاء علينا...

الخوف يتمكن مني عندما أكون بمفردي، يتغلغل عبر جسدي وأحس أن هذا الأبوشحاطة قد سبب لي خوفاً روتينياً ولكنني أتحايل على خوفي بحديث مع أصدقائي أو ضحكة أو شردة في ذكرى طيبة.. كل واحد منا فوق فراشه بعد صلاة الظهر ننشد جميعاً بصوت هادئ ودافئ.. يارحمن ارحمنا.. يا رحمن ارحمنا... إن لم ترحم من يرحم.. إن لم ترحم من يرحم

يا لطيفاً لم تزل ألطُفْ بنا في ما نزل.... يا لطيفاً لم تزل ألطف بنا في ما نزل... الهدوء والسكينة تحل بنا وننشد الأناشيد الحماسية حتى أبو صلاح بدأ يغرد بلغته الكردية ... ديزندانا... أي خرتي إسلام شي ما دينك سيراخا كلاك... وهكذا.. أما أبو الجود ذو الصوت العذب فقد جاد علينا وحملنا بجمال بصوته إلى أيام عزة المسلمين ومنعتهم وخفف عنا عناء السجن حتى نسينا أننا في قبضة من يَلِغ في دمائنا.

أراد أبو شحوار وأبو شحاطة أن ينالا من عزائمنا فأدخلا إلى جناحنا امرأتين سافرتين سفوراً فاحشاً فأدرنا لهن ظهورنا واستقبلنا الجدار فاشتد غيظهم منا... وفي تلك الليلة أدخل أبو شحاطة معه قطتين مخمورتين قد سقاهما الخمر حتى ترنحتا مثل أبو شحاطة تماماً فنلنا من الثلاثة تنكيلاً واستهزاءً فالتفت إلى أبي رواحة وسأله:

- أنت..ماذا تعمل؟؟؟
- طبيب جراح
- تداوي القحبات؟؟؟
- أداوي البشر

ثم أشار إلى أبي عجاج:

- وأنت ماذا تعمل؟
- مهندس مدني
- أنت تصلح لترويض الحمير والبغال

ثم أشار إلي فقلت له... طالب حادي عشر

- هل سألتك شيئاً يا علّاك

ذهب أبو شحاطة وخلفه قطتاه تتعثران وتموءان بشكل مضحك... مازالت ملامحه أمام مخيلتي..كان ضعيفاً عيناه جاحظتان والزمن قد حفر على وجنتيه خندقين لئيمين فغالباً ما يأتينا مخموراً وبيده أدواته القاتلة..أما سبب تسميته بأبي شحاطة فغالباً ما كان يأتينا بشحاطته البلاستيكية ونعرفه بصوتها من بعيد.

الأيام ثقيلة قاتلة ألقت حمولتها من الظلام والظلم فعُمِّي علينا فلا نسمع من الأخبار إلا القليل النادر وما يتسرب إلينا من هنا وهناك وبدأنا نستخدم الأداة السحرية لفك كل الأحجيات ألا وهي المال لفتح أبواب الأخبار وما يحدث في الخارج..

كانت الأخبار حزينة ومقيتة..الشهداء يتقاطرون والسجون تكتظ والظلم يستبد..وننتظر... إلى أن أتانا خبر شدَّ أعصابنا وهتك أحلامنا... ومزق ستائر الخيال والوهم..وصحونا على أننا في طريقنا إلى أعتى مكان في العالم..ألا وهو تدمر... لاحظ أبو عجاج الوجوم والخوف الذي ارتسم على وجوهنا

- طَوّلُو بالكن يا شباب، الأمر بسيط للغاية... إنه سجن صحي، الهواء هناك نظيف ونقي وسوف تخرجون من هناك وأجسامكم حديد إن شاء الله.

كلماته كانت برداً وسلاماً علي فأنا الطائر الذي لايعرف إلى أي جهة طار وأي بندقية مصوبة إلى صدره... وأية أيام تنتظره...

حائرُ حتى في سمائه وأرضه... أيطير في الأرض أم يحط في السماء... ضاعت المسميات واختفت النقاط واتَّحت كل الجمل من أمامي لتبقى إشارات استفهام وإشارات خوف وخفق قلب....قلب انزلق إلى المجهول....إلى حيث الخوف والرعب الحقيقي.

الساعات ثقيلة حبلى والوجوم لا يفسح مجالاً لابتسامة أو لتمتمة ترطِّب القلوب المتحفزة..... «يارحمن ارحمنا إنْ لم ترحم من يرحم» كانت تغزل في رأسي كلمات الطمأنينة والهدوء وتسقيني أكؤساً من الصبر.

دقت نبضة الصفر واستنفر الدم في العروق عندما سمعنا الأقفال تفتح في الثانية عشرة ليلاً وبدأت الأسماء تتوارد علينا كالصاعقة ودخلت مجموعة من سرايا الدفاع مسلحين برشاشاتهم وأصوات الكلبشات تقرقع وكأنها غول جائع يتغذى من أوردة السجناء..... فُتح المهجع العاشر وإذا بشاب يدعى محمد..... ينقض على أحد الجنود ويخطف منه البندقية ويصرخ بهم ابتعدوا يا أعداء الله ففتحت السرية نيران بنادقها عليه وأُردِي الشاب قتيلاً وانتشر الذعر بين الجميع...

سالت الدماء وانتشر الذعر واقتحم المكان العشرات المدججون بأسلحتهم وعصيِّهم وأخذت العصي تنهال على رؤوسنا والأصفاد تتغول في معاصمنا ونحن متجهون إلى خارج السجن المركزي.

السحاب يشطر السماء ويُكمِّمُ ثغر القمر والظلمة تلف المكان وتحضِّر لأمر خطير....صعدنا الباص والعصي تمطرنا والصراخ يهتك وجه الحياء ويحطم قلب الحياة...

القيود تشد أيدينا إلى الخلف أما أقدامنا فشُدَّت إلى حديد المقعد بجنزير غليظ...

رؤوسكم إلى الأسفل «صرخ أحد بغالهم» وأخذت العصي تنهمر على رقابنا... السفر طويل والهواء البارد يحاول أن يتغلغل إلى رئتينا ولكن عبثاً عندما أضحت الرؤوس بين الركب وضاق الجو بما رحب وانكفأ الصدر يتسول بواقي الهواء المشحون بالألم...

انهالت اللكمات على الرؤوس وجن القوم علينا فتارة بالنعال وأخرى بالبصاق وأخرى بالعصي... وتخيل يا رعاك الله... الباص ينطلق بسرعة... إلى أين... لاندري.. ولكن ظننا إلى سجن تدمر العسكري.

بدأ أحد العناصر من سرايا الدفاع دورة من المقاعد الأولى كان يطلب منهم الغناء فإن أعجبه الغناء عفا عنه وإلا فالعقوبة رهيبة.. فأصبح كل منا يفكر بالأغنية التي يمكن أن تعجبه وإن أعجبته فهل سيعجبه الصوت واللحن... وأقول في نفسي إن العقوبة لامفر منها....الأنفاس تتصاعد وتتهابط مع صيحات الألم وحدث أن

أحد الشباب غنى «سوريا يا حبيبتي» فانهالت العصي عليه والجلاد يصرخ بنا سورية يا حبيبتي؟؟؟ سوريا يا عدوتي... خازوقٌ دُقَّ بأسفلنا من جبل الشيخ إلى سعسع..... تتعالى الأصوات والآهات... أما خالد فله قصة مختلفة في هذا الباص... باص الموت.

كان يجلس أمامي ولا أدري إن كنت قد ذكرت لكم شيئاً عن خالد... فهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، جميل المحيا، طلق الوجه، ابتسامته تريح، ونظرته قطرة من حنان مع قطرة من حب... إذا نظرت إليه أحببته وإن تكلمت معه أثلجك حديثه وإن صاحبته لازمته... أكحل العينين خَلْقاً، أسود العينين، طويل القامة معتدل الجسم والآن هو يجلس أمامي تماماً...

الملازم المسؤول عن الباص أخذ يتمشى حاملاً أدواته القاتلة... توقف فجأة أمام خالد... لاأدري ما أوقفه أو لفت انتباهه..فلكزه بعصاه الغليظة لكزة خفيفة...

- ارفع رأسك أنت.
- رفع خالد رأسه....نظر إليه الملازم.
- ما اسمك؟؟؟
- خالد.

- وما تهمتك ؟؟
- لاتهمة لي إلا أني أعرف بعض الأصدقاء المطلوبين .
- تكذبون.
- لا داعي لأن أكذب فكلامي لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة لوضعي.
- وماذا تعمل يا خالد ؟؟ يبدو أنك من عائلة محترمة....

كانا يتحدثان وأصوات التعذيب تمزق القلوب.

- لدينا محلات لبيع الأدوات الكهربائية وإن قُدِّر لي وخرجت فسأرسل لك هدية قيمة لأنني لمست فيك الإنسان الطيب.
- هل أنت صادق فيما تقول؟؟
- ستعلم ذلك ذات يوم فقط أعطني عنوانك وكأني رأيتك في مكان ما ربما في بلدة كفرون؟؟

«اتسعت حدقتا الملازم»

- وكيف عرفت أنني من كفرون؟؟
- هكذا أظن بأنني رأيتك.

ابتسم الملازم ثم قال له:

- هل أنت جائع؟؟
- نعم وهل ذلك مهماً في شيء.

انطلق الملازم عبر الباص وأتى بثلاثة لفافات من اللحم وقدمها لخالد... أراد خالد أن يقدم شيئاً لأصدقائه المدفونة رؤوسهم بين ركبهم ولكن ذلك كان محالاً... أكل خالد طعامه والملازم يراقبه عن كثب تارة ومن بعيد تارة أخرى..

تقدم الملازم من خالد وسأله:

- هل معك نقود؟؟
- نعم ألفا ليرة...

همهم الملازم ثم ذهب إلى حقيبة له وأخرج شاشاً وقطناً ولاصقاً ثم قال:

- سيأخذون منك المال عندما تصل إلى هناك لذلك سأخبئ المال بذراعك وأضمده لك فلا تنزع الشاش حتى تصل إلى مكان آمن...

ابتسم خالد وقال له:

- سأقدم لك المال هدية لك عرفاناً بأخلاقك النبيلة...

هزَّ الملازم رأسه رافضاً وأخذ يلف ذراع خالد مخبئاً المال تحت الشال ثم تمتم له قائلاً:

- ليس لك إلا الله رعاك الله.

الثواني قاسيات متمردات على ساعاتها فكل ثانية اتسعت لتحتل ألم دهر بأكمله... والدهر جثم بعذاباته علينا... أما خالد فبقي طوال الرحلة رافعاً رأسه... والعجلات تنهب الأمل... والأمل شرد عن عقاله وآثر الموت على الحياة في هذه الرحلة..

توقف الباص هنيهة من الزمن..عرفنا بعدها أننا وصلنا إلى محطتنا الأولى مع طلوع الفجر... إنه سجن كفر سوسة حيث وضعنا في أسفل قبو قذر ثم أخذوا ينادوننا فمن يذاع اسمه عليه أن يصعد إلى الأعلى وهناك يقف كلب من كلابهم مفتول العضلات ويقوم برفسة أو لكمة كفيلة بأن تعيدنا إلى الأسفل على طريقة الأفلام الأمريكية..

مكثنا في هذا السجن سبعة أيام مع بعض السجناء القضائيين.... تعرفت هناك إلى شخص يجيد جميع اللهجات المحلية السورية والعراقية... جلست معه كان حديثه مليئاً بالمفاجآت تبين بعد ذلك أنه جاسوس مزدوج للمخابرات السورية والعراقية وتحدث كيف جُند وهو طفل لحساب الاستخبارات العراقية وخضع لدورات بدنية وثقافية مكثفة في اللهجات وكيف أن حزب البعث في كلا البلدين يكيد أحدهما للآخر وكيف تُخطط الانقلابات هنا وهناك ولكن لسوء حظه وقع هذا الشاب في فخ السوريين الذين أودعوه داخل القفص وحكم عليه بالموت وهو ينتظر مصيره القادم...

انقضت أيام سبعة ننتظر بخوف وأمل وبعدها كُبلنا من أيدينا وأقدامنا وألقي بنا بعضنا فوق بعض في سيارة صغيرة..كدنا نختنق داخل السيارة التي اتخذت طريقها إلى تدمر..وفي الطريق نظر السجانون إلينا لم يلحظوا من كل تأوهاتنا واختناقاتنا إلا خالداً.

- أنت أنت ارفع رأسك

رفع خالد رأسه متألماً

- والله أنت حرام عليك هذا الوجه ما تهمتك؟؟
- تهمتي أني أصلي وأقرأ القرآن.
- أنت تكذب.
- ولماذا أكذب..هل سأتعذب أكثر مما تعذبت!!
- وتتجرأ أن تتكلم !!
- أنت تسألني وأنا أجيبك.
- قم والله إنت بتستاهل..قم واجلس فوقهم جميعاً.

لم يفعل خالد فمد الشرطي يده عبر القضبان الحديدية وأجلسه وبعد ساعتين خلال الرحلة همست لخالد:

- لا تتكلم معهم إن الحديث معهم لا يجدي نفعاً

فرد خالد هامساً:

- إن قطرة الماء تحفر الصخر الأصم.

وهكذا انقضت ساعات من الألم... توقفت السيارة...

..رفعت رأسي لأرى قبعات الشرطة العسكرية تعتلي الأسطح والأسلحة مستنفرة تجاهنا وقد كُتب على جدار السجن «الداخل مفقود والخارج مولود»..إنه الخوف القاتل إنه سجن تدمر العسكري... أغوص في شرداتي لتتمثل أمامي كلمات أبو عجاج «هناك الهواء نقي وستخرجون من هناك أقوى إن شاءالله»

الصيحات تملأ أركان السيارة... رؤوسنا مطأطئة إلى الأسفل والعصي تقودنا من الباص إلى ممر ضيق يقود إلى غرفة مربعة مخيفة... في هذه الغرفة تنهال السياط على الرؤوس وصيحات الموت تأمرنا أن نتوجه باتجاه الجدار... صيحات الألم تفجر المكان ومجموعة من الشرطة العسكرية تنقضُّ علينا وتقودنا إلى باحة واسعة... جَثَوْنا ورؤوسنا باتجاه الأرض عبر صف طويل..وانتصبت دواليب الاستقبال الرهيبة... وكان أحدهم يرمي بالدولاب علينا كمن يصطاد فريسته فمن اصطاده يكن الضحية المقبلة وهكذا حتى جاء دوري...

لم يعد للصراخ موضع، فالقدر وقع والصبر خير من أي شيء.. لم أستطع الوقوف على قدمي... وكأن الحصى الموجود في الباحة سكاكين تخترق العظام..كما أني لم أعد أحس بوجهي من كثرة

الكفوف واللكمات وانتابني شعور لا مبالاة بكل هذا الهرج والمرج... وقادنا السجان عبر الباحات فسمعنا صوت طائرة حربية فوقنا على ارتفاع منخفض... اقتربنا من باب أسود ففتح السجان الباب... سمعنا صوتاً قوياً منبعثاً من الداخل... «استاعد....استارح.. المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب «دُفعت إلى الداخل، كانت الشمس قد مالت للرحيل ونحن الآن في شهر كانون الأول... أما المكان فهو السجن العسكري في صحراء تدمر... الكلمة لم تتجسد بمعانيها بعد «سجن تدمر العسكري»... دخلت مع من فُرز معي إلى هذا المهجع... لم أر إلا أشكال أشباح أو ظلال أوهام لأن عقلي لم يستوعب المشهد بعد... وجوه موجهة إلى الجدار..قامات قصيرة.. رؤوس حليقة وبعد أن رحل الشرطة استدارت الظلال وتناول كل ظِلٍّ منهم بطانيته وجلس مكانه..... الصمت رهيب والوجوه صفراء خائفة... الرؤوس مسمرة والنظرات جامدة قاحلة.

جلست على بطانية في وسط المهجع..لم أكن أعرف أحداً وكان يجلس بجواري شاب من مدينة حمص اسمه غسان التفت إلي وتعارفنا وقرأنا شيئاً من القرآن من السور القصيرة ثم تعرفت على شاب كان معي في الصف السابع وكانت آثار التعذيب واضحة على وجهه ويديه..فسألته خائفاً:

- كيف الوضع هنا ؟؟؟

- لقد تحسن كثيراً لا تخف.

أتاني أحدهم بنصف تفاحة وقد كنت بحالة مزرية وما هي إلا لحظات حتى دخلت الشرطة.

- الدفعة الجديدة لبرَّة...

خرجت من بين الصفوف بعد أن خبَّأت التفاحة تحت إبطي فقال الشرطي:

- إفتح يديك.

وانهالت السياط على يديّ حتى أصبحتا زرقاوتين ممتلئين بالدم ووقعت التفاحة مني فقال الشرطي

- خذها

فلم أستطع أن أحرك أصابعي وتجدد الضرب حتى أشبع الكلاب رغبتهم الحقيرة في امتصاص دمنا.

دخلت إلى ما يسمونه المطبخ وفتحت الماء على يدي وانتابتني موجة جامحة من البكاء... حاولت أن أخفي دموعي أمام الآخرين... الأعمار تتراوح بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة... نظرت إلى الوجوه لم أستطع تمييز أحدٍ من أحدٍ فالوجوه متشابهة والصفار يحتل الوجوه وأحسست كأنني في مشفى للمجانين..

«لن أتكلم عن الظلم والتعذيب لأن التاريخ سيعرِّيهم ويسقطهم في مزبله عاجلاً أو آجلاً فإن انفلت لساني في الحديث عنهم وعن ظلمهم فهو غيض من فيض ولكني أود الحديث عن تجربة فريدة خاضها أطفال أو بالأصح أبطال في أعتى سجون العالم حيث وضعنا القدر بين هذه الجدران العالية ذات السقف المخيف الذي يسمح بنافذتيه الكبيرتين بأن نخضع للمراقبة ليلاً ونهاراً..... تسقط الأحرف هلكى عندما تتصدى لوصف ما حدث فأناشد قدرة الإلهام أن تحيي ما اندثر من ذكريات كي أوصل إليكم ولو شيئاً بسيطاً مما حدث»...

لم يحدث أن رأى أحد نجوم الظهر في حلكة الليل ولكني رأيتهاللمرة الثانية عندما هاجمتنا الشرطة ونحن نتناول الأرز المطبوخ بالماء والحصى... كان علينا أن نتيبَّس في أماكننا عندما يدخلون وهم يجتاحون وجوهنا ورؤوسنا...

الليلة الأولى أسلمت وجهها لله....السكون رهيب والأنفاس تتسلل بهدوء كي لاتحدث ضجة ما... قطرة الماء وهي تنساب من الصنبور تحدث خرقاً رهيباً للصمت فصوت هذه النقطة يحدث رجفة في القلب ولمعة في العين التي ترمح باحثة عن السبب وراء هذه الفوضى...

الساعة قاربت السابعة والنصف صباحاً

فُتح الباب فجأةً فصاح رئيس المهجع:

- استاعد.....استارح المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب

وجوهنا للجدار أعيننا مغمضة خائفة من ضربة مفاجئة... أدخل الإخوة الفطور على وقع سياط الجلادين... حصتي كانت ثلاث زيتونات وكوباً من الشاي وصمنة عسكرية..

وحيداً هنا وسط مائة وأربعة وعشرين وحيداً مثلي... فهنا لاأم تحنو عليك ولا أب يضمك تحت جناحيه ولا أخ يربت على كتفك الجريح... هنا عليك أن تتألم بصمت وأن تنزف بصمت وربما أن تموت بصمت لماذا لأننا قلنا لهذا النظام: لا... كم هي صعبة كلمة..لا.

بدأ الإخوة يخلعون ثيابهم ويفتشونها بدقة فسألت غسان عن السبب فأجاب

- إخلع ثيابك وفتش عن القمل.
- القمل؟؟
- أنت فتش قبل أن يمص دمك في الليل.

لم أستجب له ولكن بعد ساعتين أخذت أراقبهم كيف ألتقط القمل وكان هناك من يعلمني كيف أضع القملة بين إظفري إبهامي

ثم أطقّها... كان الأمر مذهلاً ومخيفاً.. الحصيلة الأولية كانت خمس قملات... ياللهول بدأ البرنامج الرهيب للسجن الذي سيرافقني طوال السنين القادمة :

السبت موعد الحمام وما أدراك ما الحمام... نركض كالحمائم الطائرة التي تحفها أنياب ومخالب الكلاب والذئاب الجائعة لتعود تلك الحمائم مضرجة بالدماء وربما قبل أن تبتل بالماء.

الأحد إنه موعد الحلاقة....الأذقان تحلق بالسكاكين الحادة بعد أن يكون القضائيون قد ملؤوا وجوهنا برغوة الصابون والرؤوس تحلق بالماكينات بعد أن نجثو على الركب والأيدي معقودة إلى الخلف والرؤوس مطأطئة للأرض وما يرافقها من حفلات تعذيب رهيبة.

الإثنين حفلة تَنفُّس ونحن عراة جاثون والسياط تحيط بنا... وبقية أيام الأسبوع تجتمع علينا فنون الروس في كيفية غسيل الأدمغة وحقارة البعث في ثني العزائم والشكائم الأبية.

هنا الخوف وهنا الترقب وهنا الانتظار...

هنا الموت..وهنا الإنسان الأول الذي رُمي في جزيرة تحيط بها الوحوش وتقتحمها الذئاب لتنهش من دم هذا الإنسان.....

هنا لا يوجد شيء سوى العوازل والبطانيات المليئة بالقمل والإنسان المترقب..

تعلمت كيف أقص أظافري بواسطة الخيط الذي ننسله من البطانية وكيف ألصق الصابونة على الجدار لتشكل مشجباً لبشكير أو بدل (قميص) مبلل....

تعلمت هنا أن أشكو كربتي وألمي لله وحده... عزيمتنا قوية بالله ومخيفة للأعداء فيزدادون شراسة خشية أن نفكر بشيء ما...

وبعد أسبوعين تقريباً فُتح الباب وأُمرنا أن نأخذ حوائجنا... وانطلق الطابور إلى مهجع في قلب السجن الرهيب إنه مهجع الذي يحمل رقم الثاني والثلاثين.

# مهجع (٣٢)

هنا الأيام تختلف باختلاف الموت الذي يتربص بنا...

هنا في وسط سجن رهيب يتفنن السجان في حشرنا على وقع السياط لنتدافع نحو باب صغير وبين صيحات الألم نحاول أن نصل إلى الداخل فهو الأمن من الوحوش التي تنهش من دمائنا.....

استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب...

هذا هو نداء الراحة بالنسبة لنا...

تجمع الإخوة في زاوية من المهجع محملين بالبطانيات والعوازل..

# الشهر الأول

الأرض مليئة ببقايا أتربة وحصى وتتوزع لطخ الدم المتجمدة هنا وهناك كما تلتصق بسقف المهجع بعض اللطخ المخيفة ... هالَنا المشهد وسرعان ما تبادر إلى ذهني وأذهان الجميع أن ما نرى هو آثار مجزرة ليست بالبعيدة... لقد كانت مجزرة تدمر الرهيبة... استوعبنا الموضوع بسرعة لأن الوقت يداهمنا فبعد نصف الساعة يمكن أن يأتي الغداء والأمور يجب أن تكون جاهزة...

بدأت مجموعة بشطف المهجع وأخرى بتنظيم أماكن النوم والجلوس، فأخذ أبناء مدينة حمص الركن اليساري من المهجع أما الشباب دون سن الثالثة عشرة فوضعوا في صدر المهجع ومعظمهم من أبناء حلب،كما تجمع أبناء دوما مقابل الباب فوضعوا أمتعتهم هناك وانتشر أبناء حلب في بقية المهجع ومعهم أبناء إدلب واللاذقية والدير وبانياس... كما اتخذ أبناء دمشق ركناً خاصاً بهم وما هي إلا لحظات حتى سمعنا صوت المفاتيح القاتل فانتفضنا واقفين وتعالى صوت رئيس المهجع

أنس نينو:

- استارح استاعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب.

- أدخل الغداء يا حيوان....

انطلق اثنان وأدخلوا الجاط (وهو طست كبير توضع فيه المرقة)... السياط تنهال على الشابين المتبرعين بالعمل بالسخرة...

ثم انطلق شاب آخر بسرعة كي يدخل الدوسير (والدوسير يعني الفاكهة بلغة العسكر)... الجميع يتحركون بسرعة ويلتزم الهدوء لأن المهجع كما تعلمون له نافذتان كبيرتان في السقف يقف عليهما وحش من وحوش السجن وأي حركة مريبة يكون نتيجتها ربما الموت... هذا اليوم الأول كما يقال نمنا بدون هز... مكاني في منتصف المهجع وكان موقعي بحسب الأقدمية في السجن فهناك من سبقني بأيام أو بأشهر طويلة.....

توالت الأيام وكل يوم يحمل معه الكثير الكثير... الوحدة تفترس أعصابي لايوجد أحد أعرفه سوى الشاب الذي قادني إلى الفرع في أول يوم اعتقال لم أكن أحبه ولم أستطع أن أكلمه أو أفضي له بالغربة التي أعيش بها.. أخيراً تعرفت على مجموعة من أبناء إدلب يأكلون مع بعضهم البعض فانضممت إليهم....ظافر... أيمن.... عبد اللطيف وعمرحاج عيسى وأخذت الأيام تأخذ مسارها المعتاد القاتل وفي داخل المهجع حركة مرتبة منظمة توحي أن هناك قلباً لهذا الجسد المتمثل بالمهجع.لابد للملاحظ إلا أن يلفت انتباهه

شاب يبدو عليه النمو أكثرمن البقية «إذعلينا أننا نتذكر أن كلنا في السادسة عشرة وما دون وأنه يوجد كثير منا لم يصل بعد إلى سن البلوغ «ذلك الشاب هو خالد أبو منصور عليكم أن تتذكروا هذا الاسم جيداً.

ثلة من الشباب على رأسهم خالد ومحمد سخنية وأنس ومظهر وكثير منهم من يتصدون لإدخال الطعام وتوزيعه وترتيب مجموعات الطعام والإشراف على نظافة المهجع.....إلى أن استقرت الأنفس رغم البرنامج الرهيب الذي نخضع له دون رحمة، ففي هذا المهجع اكتشفنا أن الرقابة العلوية من السقف لم تكن مستمرة على مدار الليل والنهار فبدأت أصواتنا ترتفع قليلاً فوق الهمس الذي نتكلم به كما أن النوافذ الجانبية أصبحت بمثابة الرادارات الجانبية التي ترصد لنا حركة الشرطة القادمين إلينا أو الراحلين عناوذلك عن طريق ظلالهم التي ترتسم على السقف فالحركة بعكس اتجاه الظل وهكذا نرصد حركتهم من الأرض ومن السقف وأصبحنا نعرف ساعات تبدل الحرس ونميز أصوات القتلة القادمين إلينا فهذا اسمه حيّو وذلك فواز وآخر الشاوي وهكذا توالت الأيام مثقلة تخبئ في رحمها ثواني كالسنين وسنين تجعل الولدان شيباً....

# الشهر الثاني

الموت هنا متلاحق لايسمح لأحد أن يفكر إلا بالخلاص من البرنامج اليومي الرهيب بخير وسلام ولكن هنا ك حديث خفي يدور بين الشباب وهو حديث النبي ﷺ «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم» علينا أن ننصب أميراً علينا ....وماذا لو وصل أمرنا للشرطة....سيكون مصيرنا المشنقة بلا أدنى شك..... همس هنا وهمس هناك وحركة تدور بين رامز وأنس وخالد وبعد يوم أويومين توالت المباحثات ثم وقف رئيس المهجع معلناً أنه اجتمع من يهمه الأمر في المهجع ورأوا أن يكون هناك من يُرجع إليه في كل الأمور ألا وهو رامز وأن أمره مطاع وعلينا مبايعته والإصغاء إليه....وقف رامز وألقى التحية «وخلال الوقت كانت المراقبة للنوافذ وللسطح على أتم وجه» وردد ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب ووعد بالخير.... وانضبط المهجع خلال اليومين القادمين بشكل لافت ومع نهاية اليومين وقف رامز أمام المهجع وطلب الصمت فسكت الجميع وألقى التحية وبسملَ:

أيها الإخوة الأعزاء أيها الأبطال... أيها الصامدون على خط الموت....أخشى أن نكون قد قفزنا على ظروفنا قفزة لانستطيع أن

نحتمل الوقوف أمام الظروف مرة أخرى... أرى أنني غير قادر على المهمة التي وكلتموني بها....نحن في ظرف غير قادرين فيه على أن نقول كلمة واحدة.... إننا نحسب أنفسنا سياسيين ولكننا في الواقع نحن مراهقون سياسّيون أعتذر عن قبول هذه المهمة المستحيلة والسلام عليكم....

انفلت زمام الأمور من جديد وحاول البقية الباقية السيطرة على المهجع وفي اليوم التالي وقف شاب من الساحل في وسط المهجع.....

- مرحباً يا شباب بحب أحكي كلمة...

صمت الجميع..

- أنا هون معكم في المهجع واسمي أحمد زعيتر.. واللي ماهو سامع بأحمد زعيتر يسمع!! واللي بحاول يُسوّيينا هون جماعات فسأخبر عليه الشرطة لتصفية الحساب معه( ومدّ زعيتر هذا نعله). وقال:
- شحاطتي هذه أشرف منكم...

هجم عليه أنس شامية واحتدمت المعركة وساد الهرج والمرج رغم الخوف الشديد.. أما أنس فهو طالب من المدرسة الشرعية وتفاكك الإثنان بعد صراخ من رئيس المهجع وبدأت العيون

تتزاور هنا وهناك والقلوب تحتقن «زعيتر هذا رأسه كأجاصة شتوية لايستوعب إلاما يقتحم رأسه الصلب وهو جبلي صعب المراس».... مرة كنا ندور في الباحة مطأطئي الرؤوس تنهال علينا السياط من كل مكان فلمح زعيتر هذا بقية لفافة تبغ فرمى بنفسه واختطفها دون أن يدركه أحد من الجلادين وبعد أن دخلنا المهجع أظهر زعيتر صيده الثمين فاجتمع حوله المدخنون مهنئين طامعين ولو بشحطَةٍ واحدة من صيده الثمين ولكن المشكلة هنا كيف سيتم شعلها فاقترح أحدهم بأن يُرفع حتى المصباح ومن حرارة المصباح يشعل السيكارة ولكن ظافروهو مدخن منذ نعومة أظافره انبرى لحل المشكلة واستعار نظارة سميكة من أحد الشباب والتمس أشعة الشمس المطلة من إحدى النوافذ واجتمع حوله من يهمه الأمر ومن لايهمه الأمر حتى تم إشعالها واحتفل الجميع بالحدث وعادت بنا الذاكرة إلى الإنسان البدائي وكيف استطاع أن يشعل النار.....ومن يومها أخذ المدخنون يجففون حشيشة الشاي ثم يلفونها بالورق الذي حصلوا عليه من الأكياس الورقية التي تأتي أحياناً مع الطعام، ثم يجتمعون ليدخنوا إنتاجهم القاتل، ويوماً بعد يوم توطدت العلاقة فيما بينهم وتشكلت مجموعة قوية في المهجع يحسب لها الحساب..

في اليوم التالي خرجنا للتنفس صباحاً والمطلوب أن يقوم أحدنا بتأدية أغنية جميلة وإلا فالمشنقة جاهزة لتأديبه والمشنقة عبارة عن

عصا الفلقة إذ توضع الحبلة على العنق ويقوم جندي بشد العصا إلى أن يغمى على المشنوق تماماً فيتركوه.. كان الوضع رهيباً فرفع يده شاب يدعى أحمد أبوخرس «وهو من الشباب الذين لم يتجاوز أعمارهم الثالثة عشرة» وقال:

- أنا حضرة الرقيب
- نت ؟؟؟ غنِّ لنرى

بدأ أحمد يغني أغنية قديمة بصوت رائع أدهش الجلادين وأعماهم عن قتلنا مازلت أذكر كلماتها كنا نستمع إليه وأكواعنا تنزف دماً «صيد العصا يا سمك يا بُنيِّ تلعب في الميه... لعبك يعجبني.....»

- ارفع رأسك..ما اسمك أنت؟؟؟
- حمد أبو خرس
- ولَك رئيس المهجع هذا يبقى رأسه مرفوع.
- حاضر حضرة الرقيب.

في الليلة ذاتها البرد ألقى برماحه علينا فتدثرنا بالبطانيات فصحراء تدمربدأت تفصح عن قسماتها القاسية، وفي الليل بدأنا نسمع صوت كلاب جائعة تقترب من المهجع التهمنا الذعر من

جديد فالقلوب ترجف والقسمات تتقلص والهمس يدور ترى هل ستفترسنا الكلاب.

همس لي شاب يجلس قربي..ربما يدخلون الكلاب إلى داخل المهجع... ومرت نصف ساعة تقريباً ونحن متأهبون ننتظروالدماء تكاد تنشف في عروقنا وأخيراً ابتعد الصوت رويداً رويداً وتنفسنا الصعداء.

الوسادة مجموعة ثياب ممزقة ملفوفة والمكان المتاح ثلاثون سنتيمتراً عرضاً وتتشابك الأرجل طولاً كما يُحشر السمك في علبة السردين.

مصباح صغير شحيح يتدلى من سقف المهجع لايستطيع أن يدفع الظلام المخيم علينا... ولكن لابأس فالليل أرحم من النهار ولكن نهار الغد خبأ لي مفاجأة سعيدة.....

الساعة السابعة صباحاً أصوات المفاتيح تُسمع من بعيد والظلال تتحرك مشيرة إلى قدومهم... فتحت النافذة الصغيرة بسرعة وصرخ الشرطي:

- طريف غنوم موجود ؟؟؟
- حاضر سيدي موجود.

انفتح الباب بسرعة وخرجت لابساً ما تبقى على جسدي من ثياب ومحتذياً نعلين مختلفين...

نظر إلي الشرطي وقال:

- رتب أمورك ستذهب لرؤية أهلك.

دخلت المهجع فقُدمت لي الثياب من كل مكان ولبست حذاء أيضاً وانطلقت. السيارة العسكرية تغادر المكان ..... يالله لم أتخيل أن أخرج من هذا المكان الرهيب حتى ولو لزيارة أهل.... سُمح لي بأن أرفع رأسي فلمحت بقايا آثار تدمر. تذكرت شيئاً من التاريخ،فكم من أمم وأمم مرت على هذه الأرض وكم من دماء روتها فمن هنا سيقت ملكة تدمر أسيرة إلى بلاد الروم وهنا وقع شعب تدمر تحت الأسر... وهاهي الطغمة الحاكمة تتخذ شعب سورية عبيداً تستبيح مالهم وعرضهم وفكرهم تقتل شبابهم وتحارب دينهم.تجاوزت السيارة تدمر لتصل إلى حمص وتتوقف أمام الفرع العسكري... أُنزلنا أنا وبراء «الشاب الذي خرج معي من تدمر لزيارة أهله»وانتظرنا في غرفة صغيرة...

اللقاء كان عاصفاً فمعنوياتي ما زالت قوية والدموع قد اكتسحت الزمن ولم تسمح للكلمات أن تعبر إلا بعد أن نبّهنا أحد العناصر هناك بأن زمن الزيارة سينتهي قريباً.... الوداع كان أصعب

من اللقاء كيف لي أن أدعهم وكيف يتركوني مع الموت الجاثم في تدمر.... هكذا الحياة في ظل القوة والسطوة..... أكياس ممتلئة من الطعام واللباس... تلك هي ما استطاعوا أن يحملوه فكما يقال الداخل مفقود والخارج مولود فلا بأس؛ كففت دموعي وأجلسوني في غرفة أخرى وانتظر الأهل في غرفة ثانية كي يقدموا الشكر والعرفان لصاحب الفضل بهذه الزيارة الفريدة ولكن أمي كانت تخرج من الغرفة لتسترق النظر إلي مما يزيد بكائي وحشرجتي.. نظرت إلى جواري فرأيت براء هذا الشاب ذو الشعر الأحمر والوجه المنمش..وما هي إلا لحظات حتى أطل والده وقد ارتدى بزة عسكرية وأشار له أن تعال..تبعه براء وبعد بضع خطوات سمعت صفعة كف مدوية وعاد براء وأصابع أبيه قد طبعت على وجهه الأبيض....

# الشهر الثالث

عدنا إلى المهجع محفوفين بالركلات والسباب... كانت الزيارة استبشاراً بالخير بالنسبة للجميع فالكل ينتظر زيارة من ذويه والفرحة عمت الجميع بما أحضرت من أغراض وطعام فالغربة قد طعنت الجميع بحربتها القاتلة...

الوفود الجديدة تتقاطر إلينا يوماً بعد يوم والقمل والجرب يزداد يوماً بعد يوم حتى قررت إدارة السجن أن تقوم بعزل المصابين في مهجع يتم معالجتهم على حدة..وبدأنا نجتمع مع سجناء من مهاجع أخرى فنحن كما كان يطلق علينا الأحداث أو الوظاويظ بلغتهم وكانت هذه هي فرصة لنلتقي بمن هو أكبر منا ونسألهم متى النصر ومتى الفرج ؟؟ومتى سيأتي الشباب ليخلصونا من السجن..؟؟؟

انضممت مع من خرج إلى مهجع الجرب وكان الذهاب إلى هناك كمن يذهب في بعثة إلى أوربة....دخلت المهجع الجديد والتقيت بستة أشخاص ما زلت أذكرهم كلما تلفت... فؤاد وسفيان وهما الصديقان الحميمان من كلية الهندسة اللذان كانا معي في الزنزانة ذات الرقم (٢) في الفرع... عانقني فؤاد وقبلني

من كتفي وأخذ يربت على ظهري وكأنه لا يصدق أن شاباً بعمري يتعرض لهذه الأهوال.... وهو يطمئن علي وكذلك سفيان وتكلمنا ودائماً ينتهي الحديث ب إن شاء الله الفرج قريب والنهاية قريبة....انقضى اليوم الأول وحان موعد النوم فمددت فراشي بجانب رجل في الخمسينيات من عمره... عرفني على نفسه ... أخوك أبو العون.ومن هو أبو العون... إنه أحد القيادات للجماعة وعُرف بأنه مرافق للشهيد مروان حديد الأسماء كلها جديدة علي وازداد نهمي لأعرف من أنا بالضبط....وتبادل أبو العون الحديث معي وبدأ يحفظني الأحاديث الشريفة إذ كان جلُّ اهتمامي أن أحفظ الحديث الشريف وأجمعه من هنا وهناك... وإلى جانب الحديث كان يسرد لي بعض القصص عن الأحداث الجارية وعن تاريخ الجماعة وبعد أن ينتهي من سرده، أعود إلى ذاتي ويسبح بي الخيال بعيداً... بعيداً.

صور لتاريخ مضرج بالدم لجماعة الإخوان المسلمين هاهو حسن البنا مضرج بدمائه بعد أن اغتالته يد الحقد... ثم ألتفتُ لأرى سيد قطب معلقاً بمشنقته فأتذكر ما قاله أبو العون مما يحفظ عن سيد قطب «كلماتنا عرائس من شمع حتى إذا ما متنا في سبيلها دب فيها الروح.» فأبتسم بيني وبين نفسي لأقول: يعني لابد من الموت لابد من نهاية مشؤومة لكل داعية... لماذا الموت يحاصرنا في كل زمان...

ألا يمكن أن ندعو الله بسلام وأمان... ثم تتقاطر إلى ذاكرتي صور الشهداء في سوريةحتى يغمرني النوم واستسلم لغد قادم..

التقيت بشاب تعرفت عليه هناك وقال لي سأحفظك شيئاً من القرأن كي تذكرني كلما تلوته فحفظني سورة إبراهيم ....وكان اسمه عبد الرحمن....أما نوزت ذلك الشاب الذي كان معي في السجن المركزي فقد بدا عليه حزن كالجبال وقال لي:

- أريد أن أحدثك...
- خير إن شاء الله؟.....

ياطريف أنت أصغر مني سناً وقد يمنُّ الله عليك بالفرج... قادر يا كريم... ونحن محكومون بالإعدام وسينفذ الحكم عاجلاً أم آجلاً وليس لي في هذه الدنيا إلا ملاقاة وجهه الكريم وهو راض عني... ولكن إن خرجت قبلي... فإن لي ابنة أخ أحبها كثيراً اسمها دالية وأريدك أن تبلغها حبي.

وامتلأت عيناه بالدموع... ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال لي...

- هل تعرف يا طريف أنا ضامن الجنة إن شاء الله..

ابتسمت وقلبي يخفق ولسان حالي يقول: ولم لا فالله خلق الجنة لأمثالك يا نوزت...

واستطرد نوزت بالحديث....اسمع..ووضع كفه على كتفي...

- عمري ناهز الثانية والثلاثين... وكنت أعيش في بيت بمفردي... وكانت لي جارة جميلة عزباء وذات يوم وأنا عائد من عملي، فتحت الباب وقالت:
- أرجوك ياجارنا أن تركّب لي جرة الغاز.

فقلت:

- تكرمي يا جارتنا...

ودخلت البيت تركت الباب مفتوحاً وما هي إلالحظات حتى أغلقت الباب وخلعت ما عليها من ملابس... كانت بارعة الجمال وكنت أشتهيها وأتمنى أن أحظى بها كزوجة..طأطأت رأسي أرضاً وقلت لها:

- إني أخاف الله رب العالمين...

توقف نوزت عن الحديث ثم قال:

- ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات]
- فقلت: صدق الله العظيم.....

وقبل أن أترك نوزت قال لي :

- تذكر يا طريف اسمها دالية... دالية لاتنس.

- فقلت له: لن أنسى أبداً.

مهجع الجرب يستقبل في كل يوم مصابين من كل أنحاء السجن الرهيب..فأصبح ملتقى الضائعين والحائرين ومكان اجتماع المسؤولين من الجماعة وكلما جاءت دفعة إلى المهجع التقينا بأصدقاء قدامى وجدد وفي هذا اليوم... فتح الباب وتدفق المصابون..انغلق الباب بالموشَّح الدائم الهدار بصوت رئيس المهجع...

- استارح استاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب.

استدارت الرؤوس المصلوبة على الجدران لتتعرف على الوجوه الجديدة... رجل في الستينيات من عمره يفتش بلهفة بين القادمين... و... و... والتقت نظراته بمن أراد وتلاحم الرجلان يتعانقان ويبكيان كأطفال فقدوا أمهم ثم أتعبهم الوقوف فجلسوا في منتصف المهجع والتففنا حولهما لاعجب فالمتعانقان أب وابنه شردتهم السجون وجمعتهم الأقدار ... الابن جاوز الثلاثين من عمره والوجهان متشابهان... لم أستطع أن أميز فعلاً الأب من الابن.. والتقيت من جاء في هذه الدفعة بأمير مجموعتي..خالد... وكم أحببته... تعانقنا والدموع تسبقنا وكل دمعة تخزن تاريخاً مشتركاً مع من سبقونا من الشباب وحدثني يومها أنه حفظ جزء تبارك من القرآن الكريم وأنه رأى الرسول ﷺ يبشره بالخير .....

حان وقت العودة إلى مهجعي تذكرت قول رسول الله ﷺ «أَحْبِبْ من شئت فإنك مُفارقُه» ...

خفَّ ضغط الشرطة علينا إلى درجة أن بعض الشباب رفعوا رؤوسهم خلال التنفس ولم يعاقبوا وهناك من تبادل الكلمات مع الشرطة....أما داخل المهجع فقمنا بتمثيل مسرحية الغلام المؤمن كما قام شابان ممن يتقنون فن الكاراتيه بإجراء استعراض جميل للحركات القتالية وامتد النشاط إلى تحفيظ القرآن والمنافسة الشديدة للحفظ بين الشباب علماً أن معظمنا من المتفوقين في المدارس فمعنا العديد من الحائزين على المرتبة الأولى على سورية في الصف التاسع وهم من حفاظ القرآن وفق مختلف الروايات على يد علماء حمص إنهم مروان....و رامز....

وذات صباح.....وبعد الفطور... شابان خلعا ثيابهما حتى أصبحا عاريي الصدر واستلقيا على أرض المهجع المكسو بالبحص المدبب ورفعا ساقيهما ليأتي اثنان آخران فيجراهما من أول المهجع إلى آخره ثم يعودان بهما دورة ثانية وصيحات الألم تتفلت منهما وأحدهما كان يعض على ثوبه كي لايصدر صوتاً أوأنّة كان المنظر مذهلاً.. ألايكفي العذاب الذي نلقاه حتى يعذب بعضنا البعض. علمت أنهما قد عوقبا من أميرهما وقد نفذا العقوبة بكل رحابة صدر....يا للهول ما هذا التفكير. وقفت أتأمل شارداً ... تذكرت

عندما كنت أنا وأخي في رحلة إلى البدروسية مع الشابين الرائعين أبو مصعب وزاهد كانت رحلة رائعة وذات يوم عدنا من الجبل فرأيت أخي والأولاد الذين بسنه معاقبين وقد أمرهم الأمير أن يتمرغوا ويزحفوا على الطين فاحمرت عيناي ووقفت أمام الأمير لأقول له: إن العقوبة يجب ألا تخدش الإنسانية أو تحطم شخصية الطفل....هكذا كانوا يظنون أن الطاعة عمياء وتنفيذ العقوبة شيءٌ مقدس، واليوم وبهذه الظروف نحتكم إلى ما تبقى من علم لدينا وكنا من أشد الحريصين على تطبيق الشرع وأحكامه... فكم من شاب وضع في فمه حصى كي يفكر بالكلمة قبل أن يتلفظها..كما خضعنا لأحكام لا ندري مدى صحتها في هذا الظرف فكثيرٌ منا صام شهرين متتابعين كي يكفر الله عنا إفطار يوم من رمضان...

جلست مع ظافر وهذا الظافر شاب بعثيٌ ولكن الأقدار شاءت أن يهتدي إلى جادته... أنفه الروماني المنكسر في وسطه ونظارته السميكة وشعره الضارب للحمرة ووجهه المنمش كلها تتسق مع إصبع سبابته التي قُطِع ثلثها في تدريب له مع أعضاء حزب البعث. ظافر هذا كان يجلس بالقرب من باب المهجع ليتنصت على الأخبار التي كانت تنطلق من مكبرات للصوت من الباحة المجاورة التي يقبع بها سجناء سياسيون من الدرجة الأولى لينقل لنا ما استطاع التقاطه... إذ كان يقف في منتصف المهجع وبلهجة إذاعية يسرد لنا

الأخبار ... أما الآن فقد احمر وجهه من هذا المنظر... منظر الدماء تسيل من ظهري الشابين المعاقبين.

فقال وهو يلوح بإصبعه المثلومة .

- ما الأمر؟ والله ما بقول إلا هؤلاء شلة مجانين!!!

فقلت له موافقاً:

- يا أخي ما صدقنا ارتحنا من التعذيب حتى نحن نعذب بعضنا؟؟؟
- الله يستر... هذا زعيتر مجنون يمكن يتصرف بجنون ووقتها بِمَوْتُونا كلنا.
- شوف أنا ما بعترف بسلطة إلا سلطة رئيس المهجع.
- يا أخي رئيس المهجع الله يكون بعونه إنه يفكر بالشرطة وكيفية التخلص منهم. ومن سيضبط هذا الجمع الكبير؟
- الخوف هو الذي يضبطنا..أكد ظافر مقللاً من أهمية إقامة أي جماعة في المهجع.
- الخوف آه صحيح الخوف يعقد ألسنتنا لبعض الوقت ولكن ما نلبث أن ننسى.

- طبعاً لولا قلب المهجع الذي يتحرك بهدوء وشجاعة لكانت حياتنا جحيماً.
- صحيح والله الشباب الله يعطيهم العافية يحملون عنا هم السخرة وإحضار الطعام من الخارج.
- انظر إلى محمد يوسفان إنه فدائي حقيقي.
- نعم فدائي ولكنه مقرف !!

«وكان ليوسفان هذا تدريعة تفزع المهجع بكامله حتى اعتدنا عليه وعليها فكلما حان وقت الغداء تجد يوسفان قد تأهب لها»

في صباح اليوم التالي رأيت أحمد أبو خرس يبكي فسألت الآخرين عن السبب فقالوا: لقد أضاع اليوم صلاة الصبح وهو يبكي أسفاً على ذلك.

كنا نصلي بأعيننا أو ونحن جالسون ومضَّطجعون أو واقفون، المهم ألا يشعر بنا أحد داخل وخارج المهجع إذ كانت عقوبة من يصلي في تدمر لايمكن أن يتصورها أحد...

وساد في مجتمعنا المغلق الرؤيا فالرؤيا هي النافذة الوحيدة التي نتنشق منها الأمل وربما الاستبصار بالمستقبل..... وساد التفكير الخرافي فأحدنا قضم قضمة من تفاحته فارتسم لفظ الجلالة عليها

فذاع صيته ودارت التفاحة على الجميع لتلاقي كلمات الإعجاب والثناء على تقواه وورعه وخيمت غمامة طمست عيون الشباب قليلاً إلى أن صاح آخر: هذا لفظ الجلالة على تفاحتي أيضاً فأصبح كل منا يجرب حتى أدرك أن أسنان كل منا يمكنها أن ترسم نفس الشكل... أما مفسرو الرؤى فكانت لهم قصة أخرى ومكانة متميزة....

وانقضى هذا الشهر بالتقاط أحد الشباب لذبابة كبيرة وربط في رجلها خيطاً أحمر نسله من كنزته وأفلتها في سماء المهجع ليسود الهرج والمرج ولم يستطع قلب المهجع من ضبط الأمور حتى جاء شرطي من الأعلى وهدد وتوعد ونمنا ليلتنا ونحن لا ندري ماذا يخبئ لنا الغد.

# الشهر الرابع

نحن الآن في الشهرالرابع من سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف إنه شهر مفصلي في حياة كل إنسان داخل هذا السجن الرهيب....الصباح ملون بألوان الربيع ولكن الأرض تصطبغ بأحقاد العباد... وتلك الأحقاد تتحول إلى أفعى قاتلة ستبتلع كل من تواجهه... واليوم حركة غريبة في الصباح الباكر ..تأخر الإفطار إلى الساعة الثانية ظهراً فقد حضر الغداء مع الفطور وهذا الصباح مطعون بأصوات الآلام المنبعثة من بعيد.. أبواب تفتح وأبواب تغلق ولاندري بقية القصة التي تدور من حولنا رغم أن قلب المهجع قد وضع اثنين للتنصت لاصقين آذانهما على الباب علّهم يلتقطان حرفاً من هنا أوهناك ولكن وجوههما ارتدت مصفرة خاوية الوفاض فلا شيء إلا أصوات التعذيب المنبعثة من الباحات المجاورة....الخوف من المجهول مخيم على الملامح... والشباب يتكلمون همساً دون زجر أوتنبيه فالقلوب قد بلغت الحناجر من الانتظار .....انقضى اليوم الأول والثاني على نفس الشاكلة حتى إن التفقد اليومي يُؤخذ على عجل وسرعة لافتة....الساعة السادسة صباحاً جلبة قوية في الخارج فتحت النافذة الصغيرة:

- ولك..حيوان يالي بيسمع اسمو يطلع لبرة ..
- حاضر سيدي
- طريف غنوم و..... و..... و....و..... و.....و..... وأنس نينو ومحمد سخنيه و..... و.....وعمر البوسن.

وفي ذلك اليوم كنت قد أصبت بالفتاق نتيجة الضغط النفسي أو لا أدري فساعدني عمر وشاب آخر على المشي.

خرجنا حافين مطأطئي الرؤوس تحفنا السياط وتغزونا الركلات أما السباب فلم يعد ذا بال بالنسبة لنا وقادونا إلى إدارة السجن ثم أمرونا بالجلوس ورؤوسنا تكاد تطرق الأرض وأصوات الأنّات تنبعث من كل مكان والتقينا بعض الراجعين إلى مهاجعهم عندما جلسوا بقربنا فهمنا منهم أن المحاكمات قد بدأت..

تظاهر أنس بالجنون وبالنوبات العصبية وبدأ بكريزة رهيبة حتى وصل صوته إلى المحققين فطلبوه... الزبد يخرج من فمه وتحول جسده إلى قطعة متصلبة أما عيناه فجحظتا جحوظ الممسوس وما لبث حتى عاد به الشباب إلى المهجع أما محمد سخنية فحاول أن يقوم بنفس الدور ولكنه أعيد إلى المهجع وهو كتلة مقهورة من التعذيب... وجاء دوري..دخلت إليه أوأدخلت من رقبتي إلى القاضي..

كان صغير الوجه، حقير الملامح،حاقد النبرة،حاد البصر إن نطق أمر وإن سكت قهر،ضئيل الجسم يقبع خلف منضدة ضخمة بيده قلم أسود اللون وتحت يده الثانية أوراق.....ابتلاء وبلاء.... سيف على رقابنا ومشنقة تلوح لنا أو مصير مجهول لا يدرى له قرار.....يحيط به أربعة من الشرطة يرتهنون لأمره وينصاعون لملامحه فإن حرك حاجبه قتل وإن أومأ قتل... من أكابر مجرميها ومن أراذل خلقها

- اسمك؟؟
- طريف غنوم....
- هذه هويتك؟
- نظرت إلى هويتي فقلت نعم

شوف إنت حكمك إعدام ولكن كونك حدث حكمتك إثنتي عشرة سنةً انقلع من هون....

عدت إلى المهجع مصحوباً بمثل ما استقبلت به من حفاوة وتقدير إذ انهالت علي عصا غليظة بحجم ساق الشجرة وبعد: استارح واستاعد المهجع انتهى من التفتيش حضرة الرقيب: منبطحاً... انبطحت أرضاً ولكني لم أستطع أن أقف... أحاطني الإخوة والأصدقاء وخلعت معطفي وأخذ أحد الإخوة بتدليك

ظهري وما هي إلا بضع دقائق حتى انتفضت كأن لم يصبني مكروه والحمد لله...

قلب المهجع ينبض بقوة ويبعث الحياة في أطرافه ومع الحياة الثقة والإيمان....الثقة بالنصر القادم فهناك من بعيد رجال يحملون قلوبهم على حراب البندقية ويعدوننا بالنصر إن شاء الله..و إيمان بالله لايتزعزع ولا يحركه كائن من كان... فموضع سوط أحدنا في الجنة... ولايشاك المؤمن شوكة إلا وله مثلها وأضعافها من الأجر ونحن لله وفي الله وبالله وكل شيء له هو سبحانه.... قلب المهجع لا يدري أي منا كيف ينبض وكيف يبعث الحياة والأمل والحب في الجميع ولكن النور الذي يسري مع سريان القرآن في القلوب فيضيء الجنبات المظلمة ويشحذ القوة الكامنة في الشباب.....

ولكنني اليوم كمنت في ركن وحيداً أقلب الكلام الذي قاله المحقق... اثنتا عشرة سنة يا الله الآن مضى علي من الوقت ثمانية أشهر... كم بقي علي؟؟؟؟؟ إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر... أيعقل ذلك لابد أن الأمر مجرد تخويف أو تهويل.... بدأت أنسى شيئاً فشيئاً وبتنا نتداول ما حصل معنا في المحاكمات ونتهكم لتلك المحاكمات الصورية التي استغرقت ثلاث دقائق لكل منا ولكنا عندما خرجنا من المحاكمة أجلسونا بالقرب من الإخوة الكبار الخارجين من المحاكمات ومنا من جازف بالحديث معهم وسمعنا أن

كل من ثبت عليه أدنى صلة بالإخوان المسلمين فحكمه إعدا م حتى إن هناك دكتوراً بيطرياً تعرف عليه المحقق أنه هو من عالج بقرة أحد معارفه ذات يوم في سنة كذا وكذا ولكن البقرة ماتت فقال له:

- كما قتلتَ البقرةَ سأقتلك.

فحكم عليه بالإعدام دون أية محاكمة..... أما ظافر هذا فرأيته يتحرك بشكل عصبي جيئة وذهاباً في المهجع يحوم كما يحوم الطير الجريح فسألته: مالأمر؟ وكان ظافر يعمل في شعبة الحزب المسلحة فقام بحشو البنادق بخراطيش فاسدة وتلاه هجوم من قبل مسلحي الإخوان وانكشف بعد ذلك أمره واعتقل بخدعة ماكرة من قبلهم فعندما سألته :

- بماذا حكم عليك؟؟..

قال لي: إن المحقق اختصر كل شيء بجملة واحدة قال لي:

- سأعدمك أيها الحقير انقلع.....

ثم أردف ظافر قائلاً :

- ولكنني دون السنّ القانوني للإعدام ولا أدري هل سيطبق القانون علينا أم لا.....

بدأت العلاقات تتطور فيما بيننا فتحولت من علاقات سطحية إلى علاقات محبة وسباق في حفظ القرآن أو تعلم الفقه ....حيث

كان فقيهنا أنس شامية أحكامه مما سمع ولابد أن بعضها قد هرب من الكتب الصفراء المنسية إلينا فمن الأمور التي استحكمت بنا: تحريم أكل اللحوم التي تأتينا من عند الظلمة رغم الجوع الهالك الذي يعترينا وخاصة اللحوم المعلبة حيث كانت قصعة اللحمة تبقى على حالها دون أن يمسها أحد....أما ظافر فكان يملأ صحنه ويبتسم ابتسامة ماكرة ومرة تلو مرة لم أعد أستطيع أن أقاوم الجوع مشيت إلى القصعة كمن يقترف ذنباً كبيراً وملأته باللحمة وأكلته وأنا أشعر بعقدة الذنب القاتلة.. «كل لحم ينبت بالحرام فالنار أولى به» ....

أما الأحكام الفقهية فحدث ولاحرج....كانت الأحكام على المذهب الحنفي وكنت أهرب من بعض المسائل الفقهية إلى عمر أبو سن ذلك السلفي الصارم أيضاً كي أجد متسعاً هنا أو هناك في مسائل كثيرة وخاصة في حكم الدم ونجاسته والصلاة والطهارة.....

بدأت تتشكل مجموعات كل منها تتسم بصفة خاصة فمن يتقن شيئاً ما يعلمه لمن يرغب في تعلمه وبدأت حلقات العلم تتشكل فمن حفظ القرآن إلى التجويد إلى الفقه وهكذا حتى تعليم تصليح الساعات والخياطة والتفصيل وهكذا..... فالخياط صنع من عظم الفرُّوج إبرة عظمية ونسل من البطانية خيوطاً ليعلمني كيف أرتي بنطالي... إنه سهيل... خياط المهجع الرائع الذي يمتلئ حباً وحناناً ...

- انظر فالإبرة يجب أن تكون بين الإصبعين أما هذه الإصبع فهي التي يوضع بها الكشتبان وتدفع الإبرة من الخلف.

أما مصلِح الساعات فكانت أدواته إبرة حقيقية مهربة وامتلاك مثل هذه الإبرة يُعد جريمة لوعثر عليها من قبل الشرطة، ومصلح الأقفال يشرح لي كيف يتم تصليح القفل وهكذا وأنا كنت بدوري أحفظهم الحديث الشريف وما أحفظه من المأثورات الصباحية والمسائية..... المهجع يعمل في أوقات الراحة القليلة جداً كخلية نحل وما إن نسمع أصوات التعذيب المنبعثة من الباحات حتى تتغير الألوان وتزداد ضربات القلوب وتتغير وضعية الجلوس ويتم الاستعداد لخوض الجولة القادمة بالإستغفار...

مجموعات الطعام شكلت وحدات مستقلة لكل مجموعة أمير له سلطة على أفرادها وهو يحل المشاكل الحاصلة بينهم وعن طريق مجموعات الطعام يتم التحكم بالمهجع من قبل قلب المهجع النابض... أولئك الذين يفرشون أرواحهم في سبيل استقرار النفوس الخائفة.. ينامون آخر الناس ويحرسون الليل بطوله متناوبين على الحراسة الليلية المفروضة من قبل الشرطة وكما أن للشرطة دوريات فإن لنا دوريات أيضاً نراقب تحركاتهم ونرصد أوقات تبادل الحرس والاجتماع الصباحي ونحاول أن نتلقط الأخبار منهم من حيث لا يدرون كما أن لنا حرساً ينظر ويتحرى

من خلال ثقوب الباب وينبئنا بالأخبار القادمة من هنا وهناك... ولكن إن كان للمهجع قلب فإنه يفتقد العقل فعاطفة الشباب تعصف في كل شيء إذ أصبحت المجموعات الطعامية كإمارات صغيرة مستقلة لها سمات قومية أحياناً وسمات مذهبية أحياناً أخرى فأبناءحمص مثل عقد فريد من التآلف والمحبة وكذلك أبناء دوما وإدلب ودمشق أما أبناء حلب ورغم أنهم يشكلون قلب المهجع ولكنهم كالدم في العروق ليس له قوام أو شكل ثابت وإن كان لهم شكل فسوف يتجلط الدم ويهلك الجسم بكامله... هم شجعان عند اللقاء... كريمون عند العطاء ولكنهم أبناء حلب الذين يفتقدون السياسة واللف والدوران «الأعور أعور» ولكنهم اليوم يواجهون خطراً داهماً من الداخل ومن الخارج أما الداخل فأحمد زعيتر هذا يهدد ويتوعد وتصل التهديدات إليهم مباشرة والتهديد يعني الموت المحقق ليس لهم فقط ولكن لكل أفراد المهجع... وهكذا... دارت الأيام ثقيلة مخيفة....

# الأشهر الخامس والسادس والسابع

قبل الساعة السادسة صباحاً وقبل نداء الاستيقاظ من قبل رئيس المهجع... فتح الباب فجأة فاختلط صوت رئيس المهجع وهو يؤدي نداءه المنذر بقدوم الأشرار بأصوات الأقفال... الكل ينطلق إلى صدر المهجع..انطلق الشباب متدافعين ومهرولين كي نتكدس على الضلع الداخلي من مستطيل المهجع...

لاأحد يتحرك مفهوم رئيس المهجع ؟؟

مفهوم حضرة الرقيب.

توالت الدقائق ثقيلة مفعمة بالتساؤل: وماذا بعد ؟؟؟

هل هي مجزرة جديدة؟؟؟؟، القرآن يتلى على الشفاه الخائفة وبعد نصف الساعة سمعنا أبواباً تفتح وأبواباً تغلق وبعد ... أصوات هرولة الجنود هنا وهناك وتلاها أصوات مخنوقة..... نعم إنها أصوات إخوتنا الشباب من المهاجع الأخرى إنها أصوات تكبير.....الله أكباااار الله أكبر.. كانت الأصوات تختنق أحياناً فبدأت الهمسات تدور بيننا إنها إعدامات ..... الكلمة «إعدامات» تصطدم برؤوسنا ولا نستوعبها تماماً ... التكبير

يتوالى موجات تلو موجات لا بد أن عدد المعدومين كبير.. الله يستر.. ربما جاء دورنا لأننا لانخضع لأي قانون في الدنيا لأننا تحت السن القانوني ولو حوكمنا بالعدل لوجبَ عليهم أن يخلوا سبيلنا بعد ستة أشهر من اعتقالنا ولكن هيهات منهم العدل... وبعد ساعتين جاءنا الأمر بـ: استارح..... استدرت لأرى الوجوم على الوجوه،وبعد نصف ساعة فتح الباب مرة أخرى، تدافعنا باتجاه أضلاع مستطيلنا ....

- ولك اسمعوا يا.... يالي يسمع اسمه يضب أغراضه... إفراج.....أحمد أبو خرس... هيثم سنكري باسم الشامي...
- حاااااضيييير.

ودع الأربعة أو الخمسة المفرج عنهم البقية بالدموع....تركوا أغراضهم للبقية ورحلوا وأغلق الباب ياله من باب ظالم لم يتسع إلا لخمسة من أصل مائة وأربعين منا ولكن الحمدلله فقد خرج باسم ذو الثلاثة عشر ربيعاً كان لا يستطيع النوم حتى نحكي له قصة أو حكاية.

التعذيب أخذ يشتد ويشتد حتى أعلن قلب المهجع أنه رفع يده عن السخرة وأصبحت السخرة بالدور وفقاً لمجموعات الطعام وازدادت وطأة السجن على كواهلنا...

وقف أنس نينو أمام الشباب... وقال:

سأبشركم بأن أحد الشباب الذي لا أشك بنزاهته وتقاه وهو يدخل الطعام (وسكت أنس قليلاً) هذا الشاب رأى ملكين لهما أجنحة عظام يحفونه أثناء إدخاله الطعام ....

يا إلهي ومن يمكن أن يرى الملائكة؟؟؟

وبعد يومين وقف أنس ليتكلم أيضاً وقال:

سيكون لي وقفة كل أسبوع لنتكلم عن الرؤى التي يراها الصالحون في هذا المهجع..... واقترح أن نبتدئ نهارنا بشيء من القرآن يتلوه مروان حموي..... الآيات الأولى التي قرأها ما زلت أذكرها ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل].

جلست بعدها مخبئاً رأسي ببطانية قديمة....وأحسست أن العقاب قد يتوالى علينا رغم عذاباتنا الهائلة وأن الامتحان والإبتلاء قد آن أوانه فالجلادون قد استأسدوا في تعذيبنا واليوم هو الأحد إنه موعد الحمام وأصوات التعذيب كالغول الجائع ذي الأنياب الفولاذية ينهش من أعصابنا..... ارتد الجالسون قرب الباب خائفين فقد سمعوا شيئاً مخيفاً كنت أراقب كل شيءٍ بدافع الحرص والخوف... سألتهم عمّا سمعوا ... قالوا: لاشيء ....لاشيء وعادوا

يتأهبون للحمّام لكن الخبر تسرب كالنار في الهشيم..... إن مدير السجن يريد من كل مهجع اليوم واحداً ميتاً..

يا الله خلعنا ثيابنا منتظرين الإيعاز بالانطلاق وكان الإيعاز بضربتين من السوط على الباب الحديدي... انطلقنا والسياط تنهمر على أجسادنا وما إن وصلنا إلى الحمام حتى اعتلى الشرطة جدران الحمامات ذات الارتفاع المنخفض وأخذت السياط تنهش من الرؤوس ولم نكد نبلل أجسادنا حتى أمرنا بالخروج والانبطاح على البحص المدبب وهناك... هناك كتبوا تاريخهم المجيد على ظهورنا وكان التركيز على أسامة هذا الشاب الضعيف إلى أن سقط لاحول له ولا قوة فحملناه واحد من الأمام وواحد من الخلف والسياط تنهال عليه رغم أنه ربما قد فارق الحياة وارتاح....عدنا إلى المهجع وكأنها غزوة من غزوات القدامى ولكن سلاحنا ليس إلا الصبر والصمود وضعنا أسامة على الأرض... لونه أزرق،كأن الدم قد تجمد في عروقه رفعت أقدامه إلى الأعلى وقام آخر بتدليكه بالكامل أحسسنا أنه لايتنفس فقام خالد بإجراء التنفس الاصطناعي له حتى ـ أخيراً ـ أحسست أن أنفاسه بدأت تتصاعد وتتهابط....تنفسنا الصعداء الحمد لله لم ينجحوا في قتله.....

توالت الأسابيع ولكل أسبوع نكهته المرة الخاصة به وأحياناً الحلوة... سبحان الله رغم كل شيء لايخلو الأمر من الضحك

والمزاح فهذا المزيج الرائع من أبناء سورية لايمكن أن يجتمع بأي ظرف... إلا إذا كان ظرفاً استثنائياً بحتاً وها هو... فكلما اختلطت الأنواع ازدادت المحبة لهذه الخلطة السحرية التي نسميها سورية.... فلكل محافظة ألفاظها الغريبة التي تكون وتكوّن مادة غنية ومرحة للترفيه عن النفس وللترويح عما يعتمل بما في النفوس...

توالت الأحلام وتوالت وقفات أنس وهو يتلو علينا الرؤى فهذا رأى الرسول محمداً ﷺ وهو يقول لنا....في رجب سترون العجب..وذاك رآه ﷺ وهو يقول لنا.....على مهلكم... على مهلكم... شوي شوي وتوالت الرؤى بشكل لايصدق وبدأت الوصفات السحرية لرؤية الرسول تنتشر بيننا فهذا يقول : إذا أردت رؤيته ﷺ فعليك أن تقوم كذا وكذا وتصلي كذا وكذا من الركعات....وبدأت أشك في إيماني وأقول بيني وبين نفسي كم أنا مذنب ومرهق بالذنوب فالرسول قد جفاني وهكذا....ولكني بيني وبين نفسي كنت أتساءل عن تلك الألفاظ التي تتلى بها الأحلام... أيعقل أن يقول الرسول ﷺ شوي شوي....ولكن كما يقال الجماعة ليس لها عقل ومع المنافسة الشديدة لحفظ القرآن توالت المعجزات بين رؤى ومشاهدات للملائكة... ففلان رأى الرسول في المنام ومسح على حبة له في وجهه فاستيقظ وليس فيه أي بأس وتوالت الأيام علينا نسينا معها الأهل والخلان لنعيش في أحلام المجهول

ونقتفي أثر الراحة النفسية؛ من خلال الوهم والأحلام لايمكننا أن نفكر إلا بما يخبئه لنا الغد المخيف وهكذا ضاعت الأيام والتواريخ من أذهاننا وأصبحت تسميات الأيام مختلفة بحسب ما تخبئه من همٍّ وغمٍّ فهناك يوم الحمام ويوم التنفس ويوم الحلاقة ويوم الانتظار الرهيب من مجهول قاتل يزحف إلينا.....

كنت أرقد قرب شاب يكنّى بأبي حفص..... طويل القامة أحمر الشعر أنمش الوجه وقد أصيب بإسهال شديد وكان يتلوى بقربي وليس بيدنا أية حيلة لدفع الأذى عنه..توالت الحالات وتقاطر الشباب إلى المرحاض الذي لم يستوعب هذا الكم الهائل من المصابين حتى صنعنا مرحاضاً بواسطة شرشف وقصعة الأكل ذاتها الذي نأكل منها إذ لا وعاء آخر ولاحتى مصرف آخر نصنع منه مرحاضاً.... وبدأت حالات الإقياء والغثيان تنهش منا.. أما صديقي هذا الراقد قربي فقد راح في غيبوبة، طرقنا الأبواب وصرخنا حتى جاء الشرطة مدججين بأسلحتهم، التفتُّ إلى صديقي فرأيته ممتقعاً بالصفار فتح الباب وحملنا أباحفص على بطانيته خارج المهجع وعلمنا أنه قد فارق الحياة. الدموع دائماً تعلق على أهدابي كلما تذكرته، وكان قد روى لي رؤياه قبل وفاته... فقال رأيتني في المنام وأنا أُزَفُّ عريساً....أيعقل أن أخرج وأتزوج... وبعدما لاقى ربه علمت أنه قد زفَّ إلى الحور العين إن شاء الله.

علمت الإدارة بانتشار الكوليرا بين السجناء ففي كل يوم نسمع الأبواب تدق لإخراج شهيد من شهداء هذا السجن الرهيب وانتقل الوباء إلى السجانين أنفسهم واتخذت إدارة السجن بعض الإجراءات فوضعوا الكمامات وتوقف التعذيب الممنهج وبدأت الأدوية تنهمر علينا وأصبح الفطور والغداء والعشاء عبارة عن بطاطا مسلوقة وشاي وعلمنا أن ما أصابنا هو كوليرا الدجاج ولو أنها كانت كوليرا حقيقية لفتكت بنا جميعاً....دام الوضع هكذا قرابة الشهرين لم تتوقف الإعدامات خلالها ولكن الراحة بالنسبة لنا كانت في الخلاص من الجلادين ولو عبر المرض والموت.

بدأ برنامج جديد يقوده مساعد ممرض للقضاء على الكوليرا فكان هوالرجل الوحيد الذي نشعر بإنسانيته داخل هذا القفص المخيف....فكان يبذل ما يستطيع لمساعدتنا، فكثيراً ما أدخل لنا من الأدوية ما نحن بأمس الحاجة إليه إن كان يتعلق بالكوليرا أو بغيرها من الأمراض....مسؤولنا الصحي نصر الذي كان يعمل في صيدلية قبل اعتقاله يتفانى في استغلال كل فرصة في ادخار ولو حبة دواء للأيام القادمة.

مجموعات الطعام كانت بالنسبة لنا الملاذ والعائلة ومركزاً للتبادل الثقافي والعلمي والعاطفي وهي خط الدفاع النفسي تجاه الأعداء والتحسسات والتعقيدات التي تشكلت نتيجة التداخل

الإجباري لمجموعة من الشباب في محيط مستطيل مخيف أو ما يمكن أن نسميه بمحيط الموت.

أنا وظافر اتخذنا ركناً منزوياً..بيده طبشورة وأخذ يشرح لي عملية الإنجاب عند الأنثى باعتباره متقدماً علي فهو قد نال البكالوريا... وأخذ يرسم على الأرض... رغم أننا في سن المراهقة فمعظمنا لايعرف كنه الأشياء الأساسية في الحياة وأثناء ذلك... وقف أنس نينو وقال:

- عندي لكم مفاجأة لايمكنني أن أحكيها أو أرويها بدل صاحبها...

لكزني ظافر قائلاً:

- دعك منهم إن مانحن فيه أهم..
- اسمع يبدو الأمر مهماً...

وتابع أنس:

- أقدم لكم صاحب الرؤيا التي تدوّخ العقول وإن دلت على شيء فهو أن مهجعنا لاينقطع من المعجزات والزيارات النبوية إنه فريز

نظرنا إليه فارتد النظر خائباً وبائساً لأننا نعرف من هو ولكن السؤال القاتل حتى فريز يرى الرسول ونحن أين نسير يا ترى.....

- السلام عليكم... رأيت أنني في الجنة مع الرسول والأنبياء..

فقلت في نفسي: الله أكبر وتابع...

- ورأيت منكم من هو في الجنة ومنكم من هو في النار والعياذ بالله ومنكم مع الرسول ومنكم من هو في السماء السابعة والأدنى في الأدنى...

فقال أحدهم:

- هل تذكر أين رأيتني؟
- نعم إنك تقف على الأعراف أرجو أن تحتاط لنفسك

فارتد الشاب مكتئباً.

ضج المهجع هذا المساء الكل يريد أن يطمئن على مكانته أهو في النار أم في الجنة واستقطب فريز كل الشخصيات المهمة بالنسبة لنا فهاهو مروان حافظ القرآن والحائز على المرتبة الأولى على مستوى القطر في الشهادة الثانوية يجلس مع فريز لبعض الوقت.....كنت أراقب ملامح مروان ... كانت تتقلص حيناً وتنفرج ثم يقطب حاجبيه الكثيفتين ثم يفردهما إلى أن انتهت الجلسة بصفقة من الطرفين....كنت أراقب عن كثب كل ما يجري لقد أقام فريز المهجع رأساً على عقب. توالت الجلسات الخاصة مع فريز وكل واحد لا يحظى بأكثر من ربع ساعة معه فقد أصبح إنساناً مهماً جداً.....

في اليوم التالي..كان أحد الأصدقاء مكتئباً اكتئاباً فظيعاً فسألته عن السبب فقال لي إن فريز قال لي: إنه يشك في كوني في النار أم في الجنة...

بدأالنقاش يدور في كل ركن من أركان المهجع واحتدم الحديث بين ظافر وأيمن في الموضوع:

- الأمور كلها تأليف بتأليف أنا بقص (أَقصُّ) يدي إذا كان الأمر صحيح...

قال أيمن:

- إشو هالمهجع كله أولياء ما بقي غير نحن الزنادقه هون.

ضحكت من كلام ظافر.

- شوف أنت بالنسبة لكثير من الإخوة هون زنديق ما في حاجة لتأكيد هذا الموضوع.

بدأ أنس نينو وشامية يربطون المتناقضات التي تحدث بها فريز لا سيما أن كل أصدقائه أدخلهم الجنة ومنهم أصبح تحت عرش الرحمن وكل أعدائه إما في النار أو على الأعراف فاجتمعوا مع فريز ولكن الأخير أصر على روايته وأن كلامه صدق كله.....ثم تُرك الأمر للأيام القادمة.

الكوليرا تخطف كل يوم ما تشتهيه لتسد جوعها المدمر وكأنها تتناوب الأدوار مع الجلادين فما إن ينتهي وحش من دمائنا حتى يتقدم آخر ليلغ فيها وها نحن لاتهدأ شفاهنا في تلاوة القرآن وحفظه فتتحول التلاوة إلى مارد يدفع عنا الخوف فتنزل علينا الرحمات وتُدفع عنا النقم وتنحطم العذابات بقضِّها وقضيضها إنها الرحمة الواسعة التي تخص عباده....

ويوماً بعد يوم خفت وطأة الكوليرا ليعود برنامج السجن كما كان بل أسوأ مما كان..... نحن الآن عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين....

الجوع بدأ يستحكم بنا أي استحكام.. حصة الفرد ثلاث زيتونات للإفطار لقد أنقصوا منها ربع بيضة وملعقة من اللبنة فأصبحت ثلاث زيتونات فقط وربع رغيف عسكري أما الغداء فقد ألغي أو كاد يلغى فقد رأينا الشرطة وهم يغطّسون أحذيتهم بالمرقة التي يقدمونها لنا ورأينا أحدهم بال في قصعة المرقة ولكن الجوع كان أكبر من أن نخبر أحداً فالموت يتربص بنا في كل مكان أما العشاء وما أدراك ما العشاء إنها الشوربة المليئة بالبحص والأتربة والبول وهكذا ...

وتوافدت علينا الدفعات الجديدة من مدينة حماة بعد المجزرة الكبرى التي راح ضحيتها أكثر من ثلاثين ألفاً من سكانها الآمنين الأبرياء.. واكتظ المهجع بضيوفه المعذبين ولم تعد اللقمة تنقسم

بيننا وأخذت قوافل القمل الوافدة مع الضيوف تغزو الأبدان وتمتص رحيق الصبر المخبوء في ثنايا الأمل الواعد... وذات يوم انفتح الباب وأُدخل شابٌ من حماة فأوقفناه جانب الباب خوفاً من القمل وفتشنا أغراضه فعثرنا على مائة وثمانين قملة في ثيابه التي لم يرتدِها بعد فكيف بثيابه التي يرتديها وتثاقل الهواء على رئتينا وأخذ داء الجرب ينهش من أعصابنا فلا نوم في الليل ولاأمان في النهار وأصبح قلب المهجع ينبض بضعف وصبر فالجرب ينهش منهم ويأكل أعصابهم ورغم تحملهم للخروج وإحضار الطعام حتى لايتسنى لزعيتر وشلته التكلم مع الشرطة لكسب ودِّهم على حساب دمائنا ورغم تضحياته بالسهر على راحة المهجع فقد تشكلت مجموعة أخرى تطالبهم بالتنحي جانباً وكانت المجموعة مشكلة من الشباب الحماصنة والدومانيين... وربما شعرأحمد زعيتر أن الوقت مناسب فرأيته يرتدي معطفه السميك الذي يقيه من ضربات الشرطة وينطلق لإحضار الفطور مع المجموعة المخصصة لإحضاره.

- حضرة الرقيب عندي أمور تتعلق بالأمن أريد أن أطلعكم عليها.
- قف جانباً «أدخل الشباب الفطور وأغلق الباب وبقي زعيتر مع الشرطة»

أعصابنا متشنجة وأجسادنا مصلوبة على المستقبل المخيف الذي يهيئه ويدبره لنا من في الخارج وما هي إلا بضع دقائق حتى دخل زعيتر إلى المهجع مبتسماً ابتسامة لئيمة يخبئ وراءها ما يخبئ من حقد... ولماذا الحقد... ؟؟؟؟

تعقدت المشكلة في رأسه فهو في الأصل ليس له علاقة مع أي شكل من أشكال الدين، حتى إنه لم يسمع بأي حركة أو نشاط إسلامي في حياته إذ اعتقل وهو يلعب القمار في ركن لمدمني المخدرات وبعد أن اعتقل أراد أن ينفي التهمة بأي تهمة أخرى فسأله المحقق هل أنت من الإخوان فأجاب بـ نعم وهل أنت كذا وكذا... كان يتجنب القمار والمخدرات ظناً منه أن القمار والمخدرات هي أكبر جريمة عند المخابرات فوقع بتهمة سياسية يضيع بها الحابل بالنابل ... مازلت أذكر زعيتر هذا وهو يضع قبعة بيضاء على رأسه في أيامنا الأولى في هذا المهجع وممسكاً بخيط ثخين معقود بعشرين عقدة بدلاً من حبات السبحة وهو يسبح به وشفتاه الغليظتان تتمتمان التسبيحات التي تعلمها من أحد الشباب الذي تصدى لدعوته وتعليمه الصلاة آنذاك، وبعد أيام قليلة وقف أمام المهجع معلناً هو ومن معه من شلته الإقلاع عن التدخين وجاء بما في حوزته من الدخان وأتلفها أمام المهجع ولكن ندمه كان كبيراً بعد ذلك إذ جن جنونه كيف به يتلف سجائره وبدأ التحول الرهيب في حياته حتى

أصبح نقمة علينا وهاهو الآن يحضر لنا مصيبة قاتلة حيث اجتمعت علينا كل المصائب فالجوع الذي حاصر أمعائنا والخوف الذي دمر تفكيرنا والجرب المميت الذي ينهش في أجسادنا وهاهو زعيتر يلوذ إلى مكانه كالفأر الأجرب حين قاطعه الجميع ولم يعد أحد يتحدث إليه أما الغد الآتي فلا أحد يدري ما يحمل في جيبه...

الغد كان هادئاً إلا من بعض التهديدات التي سمعناها من الجلادين والتلميحات التي تشي بما قاله زعيتر لهم وكان بعد الغد بما فيه من موت وانتهى بما فيه من أسى.

ومرت الأيام والأيام لاتحمل لنا سوى قصص من كل المحافظات عبر إخوتنا من مدينة حماة والمدن الأخرى وما زلنا نتسقَّط أخبار الشباب المجاهدين الذين يقفون على خط النار والجهاد ونستمع إلى كل صغيرة وكبيرة بكل حماس من الوافدين الجدد من شتى المحافظات، ولاسيما حماة ولكن الجوع قد استهلكنا حتى إني كنت أتسلل إلى الغرفة التي يقع بها المرحاض وحنفية الماء وحيث توجد المكانس فكنت أنسل من مكنسة القش البذور وأضعها في فمي خلسة حتى أدركني أحدهم فاستحييتُ من نفسي وانكفأت مقهوراً من هذا الذي استحكم بتصرفاتي أي استحكام وعدت لأرى أحد أصدقائي ينسل الخيوط من كنزته ويضعها في فمه ليبتلعها بعد ذلك..تفقدت الغداء اليوم..اليوم الغداء عبارة عن جبسة صغيرة

لمائة وأربعين إنساناً جائعاً وكان مقدار حصة المجموعة هونصف حز من الجبسة كنت لا أطمح أن أتذوق الجبس اليوم ولكن لعابي سال ولو على جزء يسير من قشرة الجبس كنت أتخيلها وكأنها قطعة من جوز الهند ... امتلأت عيوني بالدموع تذكرت حينها اللمة الجميلة للأسرة حيث كانت أطايب الطعام توضع على المائدة وهذا يعجبنا وهذا لايعجبنا، فكان والدي يقول عن سيدنا عمر رضي الله عنه «اخشوشنوا فإن النعم لاتدوم» كنت آنذاك لاأدرك الحقيقة لهذا الحديث أما اليوم فيا ألله أدركنا برحمتك فإننا نهلك ....

لم نعد نستطيع الوضوء بعد أن أصبح أحمد زعيتر هذا يعد أنفاسنا ويراقبنا بأحداقه الخائنة فكان التيمم هو الحل الوحيد واختلف فقهاؤنا الأجلاء فمنهم ضربة تكفي ومنهم لابد من ضربتين،ومنهم من أباح الضرب على البطانية أو البنطال لما يحمل من غبار ومنهم من لم يجز هكذا فتوى فكان الضياع بين تلك الآراء التي حاصرتنا حيناً وجعلتنا نبحث عن مخرج من كل ذلك عبر الهرب إلى الأيسر مما يقولون.

لم ألق بالاً للنقاشات التعسفية التي كانت تدور هنا وهناك وكانت كلمات عبد المعين السيد تتهادى بصوته الجميل إلى قلبي تلك الكلمات التي يختتم بها درسه معنا فكان يردد رحمه الله

ضع في يديَّ القيد ألهب أضلعي بالسوط ضع عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكري ساعة أو نـزع إيـماني ونـور يقينـي
فالنـور في قلبـي وقلبي في يدي ربي وربي حافظـي ومعينـي
سـأظل معتصماً بحبـل عقيدتي وأمـوت مبتسـماً ليحيـى ديني

فأقول في سري: «ياللأسف نتحارب أحياناً من أجل اختلاف في الرأي بين ضربة أو ضربتين في التيمم» وأذكر كلمات الشهيد عبد المعين عندما سألته عن كيفية وضع اليدين في الصلاة..كان يقول :

«يا أخي كل الوضعيات وردت وكلها صحيح والكل صلاته صحيحة إن شاء الله... لاتدعوا الشيطان يدخل بينكم والتفتوا إلى عدوكم الحقيقي»

ثم أصحو من غيبوبتي الممتعة من خلال ذكريات وكلمات الأحبة ماداً يدي إلى جسدي لأتحسس الألم الذي خلفته بعض الرفسات القديمة والجديدة في جسدي والجوع الذي استحكم في أحشائي.

الزمن فقد إحساسه بنا كما أننا فقدنا إحساسنا به خيانة متبادلة فهو يطوينا بآلامه ونحن ندفعه بآلامنا...

هو يأكل من عمرنا ونحن ننحت في جبينه تاريخاً من الصبر

والتحدي والتهكم من كل المصائب القاتلة هو يدفع بجنوده علينا ونحن نَكِلُ جنوده لله فينزل علينا السكينة والطمأنينة والهدوء.

نحن الآن في سنة قحط وجدب وعذاب وأمراض فتاكة ومعدية فالجرب أخذ يأكل أجسادنا إذ انتقل من الجلد إلى الأدمغة والليل لايخلو من صيحات الألم من هنا وهناك لم يكن أحد يعرف كيف يتصرف مع أية حالة من الأمراض فبالأمس القريب توفي أحدنا بمرض الكريب وارتفعت حرارته ثم فارق الحياة بكل بساطه،وهكذا ابتلينا بالدم والقيح وتذكرنا بني إسرائيل وكيف ابتلاهم الله بالدم والقمل وعلمنا أنه ابتلاء رهيب أو بلاء والعياذ بالله....محنة تجعل الحليم حيران أصبح منظر الدماء مألوفاً لدينا لدرجة مقرفة وكلما اشتدَّ البلاء اشتد حرصنا على القرآن وحفظه فكنت كلما ختمت سورة أزهو بها كالطاووس وحق لي وكلما ختم المصحف أحد الإخوة نبارك له حفظه ويتهلل وجهه بالبشر والسعادة ...

أعود إلى الجرب القاتل وكلما أعود لأكتب عنه أهرب منه ولكن الدمعة العالقة بشغاف القلب لابد لها أن تمد القلم بملحها ومُرِّها.... تفاقم الوضع وتعالت الصيحات وامتد الألم وأعجب من كل هذا وذاك، أنَّ قلب المهجع لم يصب بهذا المرض الوضيع والحمد لله فقام محمد سخنية وخالد بدور المخفف للألم فأخذا ينظفان القيح والدماء

من الإخوة الذين استشرى بهم المرض وتُركنا هكذا دون علاج أو دواء ما يقارب ستة أشهر أكل خلالها المرض عقولنا وعزائمنا حتى بدأنا نطرق الأبواب ونطلق الاستغاثات لله العلي القدير حتى جاء الفرج عبركميات كبيرة من الأدوية والمضادات الحيوية وعبر هذا الخضم من الأهوال وقف «فريز» أمام المهجع وقال:

- إن كل ما قصصته عليكم كان كلاماً غير صحيح أي أنني لم أر الرسول ولا الجنة ولا النار وكل شيء كان خطأً كبيراً وأرجو أن تسامحوني، والله يقبل التائبين وإني أجدد اعتذاري ...

الصدمة كانت كبيرة بالنسبة للجميع أي بالنسبة لأهل النار ولأهل الجنة وللواقفين على الأعراف حسب رأيه فصاح أحدهم وهو من أهل النار..

- روح الله لا يسامحك يا أخ أنت أخ؟؟؟ والله أنت فخ فريد من نوعه.....

ساد الهرج والمرج وجاء ظافر بابتسامة الظافرين:

- ألم أقل لك؟؟؟ إنه عالم الكذب والمظاهر
- لعلنا اليوم نفرح أن أخرجَنا هذا الكذاب من النار الحمد لله حبل الكذب قصير يا رجل رغم قناعتنا أن كلامه تأليف بتأليف ولكنه وقع في نفوسنا موقعاً سيئاً....

- لولا الخوف الذي يجمعنا لرأيتنا ينهش بعضنا بعضاً.....
- اتق الله يا رجل وأين الدين والإسلام ألا ترى كم يضحي بعض الإخوة في سبيل أن نحافظ على وحدتنا واجتماعنا على المحبة.
- يا أخي قناعاتي تختلف إنني أؤمن بالخوف ودوره الإيجابي في التفافنا على بعضنا فلو أن إدارة السجن ذكية لتركت الحبل على غاربه وأدخلت علينا أنواع الفجور والكتب الإباحية لرأيت أصحاب التقى والورع وأصحاب الواجهات الكبيرة تنزع اللفات من على رؤوسها... كما يقال إن العبادة بين السيقان.
- إنك تنفي دور الدين بشكل جذري..إن من تراهم هم أنفسهم كانت أمور الدنيا منفتحة عليهم... أنا مثلاً بإرادتي اخترت طريقي ولم أُجبر على الصلاة أو التدين ولكن في الحقيقة لم أكن أدرك الواقع كما هو... لاتنس أننا اعتقلنا في السادسة عشرة من عمرنا.
- أقول لك أمراً أنا ولدت بعثياً ولكنني عرفت الحق فضحيت بكل مستقبلي من أجله ولكن أرى أن الرابطة التي تجمع الشباب ليست قناعات بل هي علاقات عاطفية مرتكزة على إشباع الفراغ الهائل الذي فرض علينا.

- وهل العاطفة حرام؟ وهل هناك أروع من أن أشعر أن فلاناً من الإخوة بمثابة أخي أو مجموعة الطعام هذه بمثابة أسرتي.
- أريد أن أفهم أمراً واحداً: لماذا الالتفاف حول الشباب الصغار والاعتناء بهم زائد لافت ؟؟
- طيب افرضْ أن هؤلاء الشباب الصغار الذين بيننا لا يعتني بهم أحد كيف ستكون حالاتهم النفسية أظن أنك تبالغ في الموضوع وأن الوضع بشكل طبيعي يفرض التعاون.
ـ أنا لاأفهم هذا الكلام إما هم رجال وإما لا.....!
- إنك تسيء الظن،لو كل إنسان يظن مثلك بأن الرابط عاطفي لما استقامت حياة فيما بيننا.....ثم تعال أنت مثلاً ألا يجذبك الإنسان ذو الوجه الصبوح الصابر المبتسم في وجه الأهوال هذه... ؟؟؟ أم أن الحلال حلال عليك ومحرم على غيرك ؟
- يا أخي لا تفهمني غلط الله يكون بالعون، إن خرجنا من هذه المحنة بعقلنا يكون إنجازاً بالنسبة إليَّ، كما أظن أنها حاجة طبيعية... أتعلم لماذا تضع الإدارة الكافور في الشاي ؟؟؟
- إنها تضع الكافور لتجنب جنودها الانزلاق إلى الرذيلة وها نحن نتناول الطعام العسكري بعد التعديل طبعاً في الكميات والنوعية.

- أظن أن الخوف هو الذي يقودنا إلى الفضيلة المزعومة.
- إذا كان الخوف هو الذي يقودك فهذا شأنك وقناعاتك.

انفض الحديث عند هذا الحد أما فريز صاحب الرؤيا العجيبة والتوبة الأعجب، فكأن شيئاً لم يكن بالنسبة إليه. أما بالنسبة للإخوة فقد أصبح محطاً للسخرية والتندر.....

مجموعة قليلة ملتفة حول زعيتر ومعظمهم من أهل بلده ومجموعة أخرى من الخائفين منه يحاولون كسب وده لئلا تصيبهم طرطوشة منه عبر علاقته بالشرطة أما قلب المهجع فهو ينبض بعنف ويستعد لمعركة مرتقبة هنا وهناك والفئة الأكبر في سباق حميم لحفظ القرآن وآخرون كالنحل يتنقلون حيث الفائدة والخير وغيرهم كالذباب يلتصقون بمن يرتجى منه منفعة مادية أو معنوية وعندما يهجم الخوف فالخوف يجمعنا وتضرب قلوبنا معزوفة الاستعداد لخوض المعركة القادمة المتكررة كل يوم....هكذا فاليوم عيوننا مشكولة بحركات زعيتر فقد هدد مجدداً وبين لحظة وأخرى يمكن أن ينفذ تهديده،الصَّفار بادٍ على الوجوه والأكفُّ معقودة والهمسات خافتة والحركات مدروسة....

- وبعدين هل سيبقى هذا الكلب يهددنا ! همس أحدهم بأذني...
- وماذا يمكننا أن نفعل.. أنا رأيي أن نقتله قتلة نكسر بها عظامه ولكن الشرطة ستقتلنا بعدها حتى الموت...

- هذا الكلب لو كان في الخارج سأريه من هو وما هي قيمته

وبينما كنا نتحدث بصوت خافت اندلعت معركة كما كنا نتوقع تماماً بين اثنين من شباب المهجع وزعيتر ولقنوه درساً قاسياً ارتسم على وجهه وما هي إلا دقائق حتى فُتح باب المهجع وخرج زعيترهذا ليقدم شكواه للشرطة.... الهدوء مخيم هذه الليلة فالأعصاب المشدودة والأسنان تصطك من الخوف أحياناً ومن المجهول أحايين أخرى وحان وقت الاستسلام للقدر والصبر... وبعدأن نلنا عقاباً جماعياً نتيجة وشاية زعيتر... الآلام كثيرة والدماء محتقنة. والسياط رسمت على ظهورنا أحلام الطغاة في سورية الحديثة التي يمتصون خيراتها ولكن لابأس علينا ألم يقل رسولنا ﷺ «إن موضع سوط أحدكم من الجنة... » لابأس علينا إن شاء الله....الكل مبتسم وكأن شيئاً لم يكن أو أنه لاحول لنا ولاقوة، سلمنا أمرنا لله....ولكن ليس لهذا الكلب أن يتحكم بنا...

انتشر ستة من الشباب في أنحاء المهجع ليضمنوا الهدوء والسكون إلى أن هجع الجميع في أماكنهم الضيقة.. مازال الشباب واقفين فوق الرؤوس لا أحد ينبس ببنت شفة.... القلق بادٍ عليهم والصفرة تعلو الوجوه....خطوات الحرس العلوي تتوقف قليلاً عند كل نافذة ....

- ولك رئيس المهجع إذا شفت واحد عبيتحرك أعطيني إسمه بكرة على الفطور ....
- حاضر حضرة الرقيب..

صليت العشاء بعينيَّ، ربما غفوت في الركعة الرابعة ولكن لا ضير من ذلك لأنني صحوت بعد قليل أو كثير لاأدري على صوت شخير أو زفير أو زئير اختلطت الأصوات علي بادئ الأمر ولكن تبين لي أنه ربما صوت زعيتر وقد انتابته نوبة ربو بعد أن دخن لفافة محشوة بورق الشاي المجفف داخل المرحاض. تطورت الحالة شيئاً فشيئاً حتى صدَّع صوته أرجاء المهجع وكأنها حشرجات الموت ونظرت حولي رأيت قلب المهجع بشبابه منتشرين في كل الأنحاء.... الدقائق تمر موحشة.. الحرس على النوافذ السسقفية يحدقون ويلاحقون مصدر الصوت:

- مين الحيوان اللي عبصيح رئيس المهجع ؟؟؟!
- حضرة الرقيب ..واحد جاءته نوبة ربو حادة.
- ولك أنتم حشرات ضارة إن مات أخرجه صباحاً مفهوم.
- حاضر حضرة الرقيب.

بعد ساعة من الزمن عادت الأمور إلى مجاريها ونمنا بعدها أو كدنا أن ننام لأن الصبح قد أدركنا بفوج جديد من الإعدامات...

توالت الأيام بعدها ثقيلة كعجوز مريضة متشبثة بأعناقنا فإما أن تخنقنا وإما أن نحملها على كواهلنا ونحن نتكئ على أضلاع صبرنا ونعيش، كيف لاندري ولكننا كلما ازداد الأسى ازداد حب الله فينا اشتعالاً وازداد حبنا لبعضنا البعض وتضامننا. اليوم كما أظن هو الخميس ولكن أي شهر أو أي سنة فلا يمكنني أن أذكر ولكنه الخميس لأنه اليوم الذي تلا الإعدامات... نعم إنه الخميس..... الليلُ داجٍ نمنا كما ينام سمك السردين في علبته وفي الليل صحت أعيننا علىٰ أصوات نوبة ربو قاتلة قد أصابت زعيتر وقد أكسبتنا الرعب فأعصابنا متوترة متوجسة خائفة رفعت رأسي لأرى أن شباباً من الحرس الليلي قد توزعوا في أنحاء المهجع وبعد نصف الساعة تقريباً بدأنا نطرق الباب بقوة وما هي إلا بضع دقائق حتى وقف الحرس العلوي على نوافذ المراقبة:

- حضرة الرقيب واحد جاءته نوبة ربو وهو يموت أسعفونا.
- ولك إذا مات طالعوه بكره على الفطور يا حقيرين إذا سمعت خبط الباب بدي أعدمكم كلكم.

حشرجات الموت تصم الآذان والخوف يقطع الأنفاس.... وفجأة بدأ الصوت بالاختفاء شيئاً فشيئاً..... رفعت رأسي رأيت بعض الشباب يحاولون إسعاف زعيتر ولكن عبثاً... فقد انقطع تنفسه نهائياً... ترى... هل يموت ويخلصنا من تهديداته المتلاحقة

أم أنه سينجو....لا أدري؟؟؟... غطت عيوننا قليلاً ثم استيقظنا على نداء رئيس المهجع أنس....الوجوم مخيم على الوجوه نظرت إلى تجمع بالقرب من باب المهجع فإذا بجثمان ملفوف ببطانية أسرعت إليهم

- ما الخبر؟؟!! من هذا ؟؟؟
- إنه زعيتر
- زعيتر ما غيرو
- نعم زعيتر لقد جاءته نوبة ربو البارحة ولم يسعفنا الحظ في إنقاذه ألم تستيقظ على الأصوات؟؟!!.
- نعم سمعت ... لكنني ظننت أنه سينجو.
- لا لا سنصلي عليه صلاة الجنازة قبل أن يأتي الفطور.

صلى عليه البعض صلاة الجنازة وما هي إلا دقائق حتى سمعنا أصوات الشرطة بالباب... قدَّم أنس المهجع كالعادة وأخبرهم أن لدينا ميتاً في المهجع... لم يُصدم القادمون بالخبر:

- أخرجوه ما اسمه.
- أحمد زعيتر حضرة الرقيب...
- أدخل الفطور يا حيوان

انطلق شابان لإدخاله وبعد قليل ساد صمت رهيب..... وضعوا أحمد زعيتر على الباب وتركوه كما هو ورحلوا وبعد ساعات طوال قدم عناصر من البلدية وحملوه بعيداً عنا... إلى أين ؟؟ ربما ليسلموه إلى ذويه....وهكذا طوت يد الأقدار صفحة من ذكرياته المؤلمة.

علمنا بعد زمن بعيد أن من يقتل أو يموت في تدمر يدفن في مقبرة جماعية على طريق حمص في منطقة عسكرية ....

كنا نتحدث همساً طوال اليوم لاندري لماذا ربما هالنا الموقف أو أننا لم نستوعب الموقف بعد، رغم أننا عانينا من زعيتر هذا الكثير ولكننا لم نتقبل موته بهذه السرعة أو لم نتوقع عقاب الله يحل به بهذه السرعة.

لاشك أن موته أراح قلوباً كثيرة وشفى صدوراً تجرعت مرَّ الخوف منه لأيام طويلة...

عادت الحياة برتابتها القاتلة تحوك خيوطها اللزجة السامَّةحول أعناقنا ولكن هيهات لها أن تنال من عزائمنا وطالما تمتمت بيني وبين نفسي بأن الذين كانوا يلقون علينا الخُطب الرنانة على المنابر ويدفعون بالشباب إلى فوهة المدافع قد رحلوا مع أسرهم قبل أن يصيبهم مكروه وتركوا الساحة لنا نحن الشباب الذي لم يدرك بعد

جوهر القضية، ولكن بالمناسبة ما هي القضية؟ هل هي إسلام وكفر أم حكم ومحكوم أم أن القضية ثأر تاريخي بين العلوية والسنة أهي ثورة اشتراكية قام بها حزب البعث للقضاء على الإسلام الذي تجذر في بلاد الشام... المهم اختلطت الأفكار في عقلي ربما لم يكن هناك متسع من الوقت لأفكر في ما وراء القضبان....

رجعت بذاكرتي قليلاً أو كثيراً إلى عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين عندما اقتيد إلى السجن ما يقارب الثلاث مائة شاب اعتقلوا وهم يدخلون سورية عبر جبال تركيا وكيف اصطادتهم أيدي المخابرات آنذاك كنا نراقبهم من ثقوب الباب الحديدي وتعرفت على أحدهم واسمه وائل العيسى وكم عُذب هؤلاء الشباب حتى أنهم اقتيدوا إلى الإعدام بعد فترة وجيزة من اعتقالهم... ياللهول كم من الناس تُذبح على ضريح الوطن وفي سبيل الله.. ولكن ألا يكون ذلك بمثابة انتحار إذا لم تكن الأمور على أتم وجه من الصحة؟؟؟لا بأس..فكلمة «في سبيل الله» لها مالها في النفس.

# المهجع (٣٧)

الصباح... لم يعد للصباح من معنى أو جمال فلكل صباح عندنا جريمته التي ارتكبها قي حقنا ولكل ليل وَصْمَتُه التي نَكَتَها في أفئدتنا ولكل ساعة ولكل ثانية نُواحُها... ربما تنوح علينا أو ربما ننوح فتكون رَجْعَ صدى آلام تتجدد مع كل لحظة ولحظة... ياللزمن ياللزمن... كم كان قاسياً علينا وكلما رددت الأيام تأوهاتنا ازدادت عزائمنا واشتد عودنا وهذا الصباح أمطرنا بغيث جميل وفتح الباب على عجل وأمرنا الشرطة أن نجمع كل حوائجنا لنرحل إلى مكان آخر، حمل كل فرد بطانيته وعازله وحوائجه القليلة الرثة على ظهره وبدأ المسير عبر باحات السجن الرهيب ولكل باحة ذكرياتها المؤلمة القاسية التي حُفرت بذاكرتنا إلى الأبد... وصلنا إلى المهجع الذي يحمل رقم السابع والثلاثين.. نعبر عباب العام الرابع والثمانين وتسعمائة وألف....دخلنا المهجع كان جديداً ببنائه ربما ضاق السجن الواسع بنزلائه فبنوا لنا هذه المهاجع الجديدة.... وضعنا أوزارنا وكلٌّ اتخذ المكان السابق الذي كان يشغله في المهجع السابق. فرحنا وكأننا انتقلنا إلى قصر منيف... إذ كان الفرق شاسعاً بين المهجع الذي كنا فيه وهذا المهجع... الأرض مبلطة والجدران

بيضاء نظيفة... ننتقل إليه وقد انفض مرض الجرب عنا ولم يبق إلا واحد يعاني من مضاعفاته التي سرت حتى إلى دماغه.....وبعد أسابيع وقف رئيس المهجع معلناً أن شباب المهجع قد ارتأوا أن يعينوا أبا منصور خالد أميراً للمهجع ومن لا يعرف أبا منصور فقد كان مثالاً للتضحية... كان يعمل بصمت ويبذل بصمت حتى فضحه صمته بألسنتنا التي ما فتئت تثق به وتدعو له بالخير.

استتبَّ الأمن والأمان في داخل المهجع بعد رحيل زعيتر عنا.. وبدأت مظاهر الإسلام تتبدى في تحركاتنا فأصبحنا نصلي صلواتنا بركوعها وسجودها في إحدى الزوايا الميتة التي لايمكن أن تصل إليها عين الشرطي المسؤول عن المراقبة من النوافذ العلوية.. وهكذا قام الشباب وبايعوا أبا منصور أميراً للمهجع إلا اثنين أو ثلاثة لماذا لاندري ولكن هؤلاء الثلاثة أحدثوا غصة في قلوب المهجع وحرقة وتساؤلاً عن السبب... وما السبب...

- لماذا لم تبايع أبامنصور «سألت ظافر بعصبية».
- إن بايعت وإن لم أبايع ماذا سيؤثر عليكم ؟؟
- أبهذه البساطة..ماذا سيؤثر علينا؟؟!! وماذا سيؤثر عليك إن حَلَّتْ الفوضى في المهجع ودفعتنا الفوضى إلى قهر أكبر من القهر الذي نعانيه من هؤلاء الأوغاد ؟؟؟ أهي لاتقع ضمن

مصلحتك أم أنك تحسب الحسابات الأخرى أي أنك تتملص من المسؤولية أمام الشرطة ؟؟

- أولاً أنا لست مقتنعاً بوجوب أميرٍ علينا.. يا أخي رئيس المهجع يكفي وزيادة.

طال الحوار دون جدوى..المهم أن فترة ذهبية بكل ما تحمله الكلمة من معنى عشنا أيامها القليلة..متحابين متضامنين..وبعد أسابيع فتح الباب علينا وأُدخل حوالي ثلاثين أخاً من الإخوة الصغار الذين كانوا في المهجع المجاور لنا وغص المهجع بالفوضى إلى أن تداركنا الوضع ولم نتكلم كلمة عن سياساتنا الداخلية وعن أعضاء قلب المهجع...

وقف أبو منصور أمام المهجع بعد ذلك بأسبوعين من مجيئهم قائلاً:

اسمعوني أيها الإخوة كلمتان لاغير أنا لاأريد أن أكون في أي مكانة بعد الآن يوجد رئيس مهجع يمكنكم أن تعودوا إليه وقت الحاجة....والسلام عليكم.

شاب يقبع في زاوية المهجع المقابلة للباب الخارجي اسمه عدي، وعدي هذا مازال مصاباً بالجرب إلى درجة مخيفة وقف ذات مساء وبعد أن استلقى أفراد المهجع في أماكنهم..

- أنتم والله سأفضحكم واحد واحد أنتم يا شياطيين بثوب أتقياء سأجعل مشانقكم تفرح بكم... يا من تتخبؤون برداء الدين أنتم أراذل الناس وأنجس البشر..و..و..و..

كان يتكلم بصوت مرتفع..بلغة عربية فصيحة ولم يترك أحداً إلا ونعته بأبشع الصفات وهدد وتوعد ثم هدأت سريرته ورقد في مكانه ككومة من العذاب...

كلامه مخيف ينبئ بمرحلة جديدة من الخوف والترقب... هل قدرنا أن نعيش في انعدام أمن داخلي وهي مصيبة كبرى... ما هو وجع هذا الشاب أيضاً أهو ألم من المرض أم هو فقدان الصبر وضياع الأجر؟ أهي صدمة عاطفية من تعلق مجنون في هذه الظروف الصعبة أم أنها ندم على الغُدوِّ في هذا الطريق الوعر الشاق المحفوف بالفتن؟.... هل نحن بهذا السوء ؟؟؟وماذا فعلنا له ؟؟؟رغم أن كلامه كان قاتلاً ولكنني قلت في نفسي أسينجح السجان في أن يغسل أدمغتنا فننقلب على معتقداتنا ونحارب من سار معنا في هذا الدرب ... يا للظالمين!!! أكلُّ هذا الضغط الذي يدفعنا على أن ننعت بعضنا البعض بأبشع الصفات...

الحق يالها من كلمة فضفاضة فما نراه حقاً يراه غيرك باطلاً، هل يعني هذا أن البشرية تتمرغ في أوحالها وأن كل شيء نسبي في هذه الحياة... صحيح كل شيء نسبي إلا الله فهو الحق المطلق... يا

أللهُ... يا الله تذكرت قوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج] فهدأت سريرتي ونظرت إلى وجه عدي الوضاء بملامحه الطفولية أأحزن عليه أم أشفق علينا نحن الخائفين تحت بساط الليل تختبئ القلوب مرتجفة داعية إلى الله بالخلاص وبالسلامة.

ولكن لماذا حصل ذلك..أهو المرض الذي أخرجه عن طوره أم هو تمرد داخلي على كل المبادئ والمعتقدات أم هو رفض لواقع مفروض علينا فالواقع المفروض لاحيلة لنا به أهو رفض لنا ولأصدقائه القليلين الذين اعتادوا زيارته بين الحين والآخر... لاأدري... والذي أدريه أنه اختلط الوعي باللاوعي وانفجرت طاقة الصبر لديه لتصيبنا شظاياه المخيفة ... وتكررت وقفاته واستمر الخوف ....اليوم الوجوه مقطبة شاحبة وقلب المهجع كاد أن ينفجر والليل أرخى عذابه وماذا بعد....

وما إن هجع المهجع حتى وقف عدي وبدأخطبته المفزعة وكأنه أحد أفلام الرعب المميتة... وتكررت وقفات عدي وكنا أقرب إلى الهلاك في كل مرة وذات خوف بينما كان يلقي علينا تهديداته التي أقسم أنه سينفذها في اليوم التالي قدم عليه خمسة من قلب المهجع وقادوه إلى الركن الداخلي من المهجع والذي لا تصل إليه عين شرطي مترقب من النوافذ السقفية : حاول عدي أن يقاوم ولكن دون جدوى:

- ماذا تريد لنحققه لك؟
- لا أريد شيئاً ابتعدوا عني...
- نحن هنا لمساعدتك وليس لقتالك فاطلب ما يمكننا أن نحققه لك
- أريد أن أنام في صدر المهجع.....كما أريد حصة إضافية من الطعام فإنني مريض كما ترون...
- لك ما تريد... ولكن يجب أن تهدأ ألا تعرف ما سيحل بنا إن أنت رفعت صوتك وأتت الشرطة تطلب من شاغب....
- خذ هذه المراهم وهو ما تبقى في المهجع من أدوية..نرجو لك الشفاء العاجل.

هرع رئيس المهجع عبد اللطيف إلى أنس نينو وقال له:

- لابد أن الشرطة قادمون لأن الصوت كان عالياً جداً وعليك أن تقوم بكريزة عصبية حتى نبرر الأمر...

بدأ أنس نينو كريزته العصبية إلى أن قدم أحد الحرس من النوافذ العلوية.

- إيش في يا حقيرين.
- حضرة الرقيب واحد عبيموت.

- ولك....إنه كلب وفطس إيش يعني؟ بكرة طالعوه مع فوارغ الطعام.

وهكذا بدأت أراجع مشاهد الليلة السابقة... عبارة بسيطة قلب المهجع هدأت نبضات قلبه بعد أن هدأت صرخات عدي وأوى إلى طعامه ودوائه... أصبح يكلم نفسه ثم تنهمر دموعه والمرض ينهش أنسجته ربما يناجي خالقه ويشكو لخالقه هذا الابتلاء الرهيب... لم أدر ماذا حصل بالضبط ولكن الوجوم مخيم على الوجوه والاكتئاب باد على الملامح رغم أن العموم كان لا يخفي الفرحة من أن عدي قد عاد إلى رشده بعد مسرحياته المخيفة، وعندما يهجع الصابرون إلى أماكنهم الضيقة يتذكرون ما حدث خلال يومهم علَّهم يتوبون من ذنب اقترفوه فينتابهم الخوف من شر قادم فيحتاطون بالمعوذات وينثرون حولهم الآيات ويتبركون بالصلاة على النبي....ولكنهم اليوم يخافون من أنفسهم يخافون من قلبهم النابض لأن بوادر الخلاف قد بدأت تطل برأسها البشع بين أفراد القلب... هل يمكن أن يتمرد القلب على خفقانه المنتظم....إن حدث ذلك فربما يصاب بجلطة تطيح بالجسم كله...

مرت بعدها شهور من العطش الشديد.. نصيب المهجع من المياه أربعون ليتراً لا غير ونصيب الفرد من الماء ليشرب مقدار ما يحمله غطاء الكالونه مرتين... ظمئنا ظماً شديداً إلى درجة أن كثيراً

منا قد فقد وعيه وإلى درجة أن نعصر الممسحة أمام المرحاض لنشرب قطرة ماء إن وجدت... وهكذا لاأريد أن أطيل... فقدت وعيي عدة مرات... وبعد الصبر يأتي الفرج دائماً..

وفي تلك الأثناء كان وليد وياسر يقومان بدور المهرجين ليضحكا أهل المهجع فكلما مرا بأحد ارتسمت الابتسامة على الوجوه الكئيبة..وهكذا كل يوم من أيام الضيق يفتديها أحد بما منَّ الله عليه من موهبة ليخفف عن البقية.

اليوم والحمدلله قد انتهيت من حفظ القرآن الكريم وانهمرت علي المباركات من الإخوة وأصبح عدد الحافظين في مهجعنا العشرين....مشيت وكأنني الطاووس فقد استطعت أخيراً أن أحمل القرآن في صدري بعد عناءٍ ومشقة كبيرين.

وفي اليوم التالي رأيت الرسول ﷺ في الرؤيا يهديني قلماً وكم كانت فرحتي كبيرة إذ نسيت كل عناء في لحظة من الرضى وهو إن شاء الله رضا الله ورسوله.

اندمج الضيوف القادمون من المهجع المجاور معنا بصعوبة وكأن لكل مهجع روحه الخاصة به وتعاليمه وأنفاسه التي يحمِّلها بأخلاقه وتعامله..

الجدران تضيق علينا أكثر من أي وقت مضى والأنفس ترتجف هلعاً..حتى المكان الآمن الوحيد التي نحظى به، وهو المرحاض فقدنا الشعور بالأمن فيه لأن الشرطة أخذت تنتشر في كل أنحاء المهجع وتتغلغل عبر زواياه حتى المرحاض.

- شوف يخرب بيتهم على هالنظافة «قال أحد المجرمين لصديقه»

الموت بالنسبة لكثيرين كان نعمة يشتهيها ومن منّا لا يتمنى الموت!!! ليتخلص من عناء ووطأة السجن..

أصوات التعذيب أشد من التعذيب وعدد من الإخوة طريحو الفراش نتيجة المرض وهاهو مسؤولنا الصحي واسمه نصري ليس في يده أية حيلة وهو من تصدى لهذه المهمة الشاقة ومؤهلاته لم تزد على خبرة بالأدوية.

محمد سخنية ذلك الشاب الذي أقعده المرض وأثقل عليه حتى فقدنا أية حيلة في طلب العلاج له.

اليوم أُذيع اسمه للإعدام... ودعنا وتوضأ وصلى وألقى علينا كلماته الأخيرة بطلب السماح ووعدنا بأن يسلم لنا على رسول الله ﷺ وانطلق بشجاعة الفرسان إلى جنَّته دون إبطاء.

اغرورقت عيوننا بالدموع ورددت شفاهي:

أترضى حبيبي أن تعيش منعماً ونحن على جمر اللظى نتقلب
وقد أعطاك ربك في سورة الضحى وحاشاك أن ترضى وفينا معذب

- ألا تتمنى الموت؟؟ قال لي أيمن: والله لولا أن الله حرم علينا تمني الموت لأنهيت حياتي وارتحت من هذه الدنيا.
- لا لاأتمنى الموت بل أكثر من ذلك أحب الحياة ورغم أني أعيش آلامي كما يعيشها كل أخ بيننا ولكني ما فكرت بالموت لحظة.
- ألا تحب الشهادة ؟؟
- الشهادة!! ألا يمكن أن يستشهد المرء بعد أن يأخذ نصيبه من الدنيا؟... يا أخي لا تتدخل في إرادة الله فإن اختارني فيا مرحباً بلقائه وإلا فلا... فأنا أحب الحياة.
- أنت تعيش في أحلامك!!!.

فتح الباب بعد التجويقة المعهودة...

- انتبهوا علي يا حيوانات.....استديروا وارفعوا رؤوسكم جاءت التعاليم اليوم بتغيير المعاملة معكم وسوف تخرجون من هذا المكان ولو بعد مئة سنة إن هذا الباب لا يُغلق على أحد.. ويوجد اجتماع مع مدير السجن ومن له مطالب فليخبر بها المدير.....

وخرج الشرطة.

علت الأصوات وساد الهرج والمرج وسجد الشباب شكراً لله... إنها أكثر من معجزة بالنسبة لنا أن نفتح أعيننا أمام الشرطة ورأينا من كان يصب علينا أبشع أنواع التعذيب وأقذع الشتائم ولكن... الحمد لله هل يمكن أن يكون كل ذلك قد انتهى... نشك في كل ذلك !!!

الاجتماع كان مهيباً إذ يجتمع كبير المجرمين بضحاياه. ماذا يريد منهم بعد؟؟؟

هل يريد أن يتأكد من جنونهم بعد أن نفذ كامل برامجه المخيفة معهم؟ لا ندري.

وبعد أن اتفق رئيس المهجع وقلب المهجع على طلب وحيد وهو إحضار طبيب من أحد المهاجع ليكون مشرفاً علينا في مرضنا ارتفعت كثير من الأيدي فمنهم من طلب الزيارات للأهالي ومنهم من له إخوة في السجن وطلب رؤيتهم ومنهم من طلب الغذاء وهكذا إلى أن احمرَّالمجرم من طلباتنا وهددنا بقطع رؤوسنا بحركة أصبحت محطاً للتندر والسخرية، وقد لاحظنا أن العناصر جميعهم قد وضعوا على صدورهم صوراً لرفعت الأسد.....

وفي صباح اليوم التالي فوجئنا بقدوم رجل إلى نافذة المهجع فقام رئيس المهجع بجوقته ولكن الرجل قال له لاداعي لذلك فسكت رئيس المهجع واقترب ليتبين الأمر فقال الرجل:

- أنا أبو عوض من مهجع.. وقد عُيّنت لتلبية حوائجكم ولبيع الشاي والقهوة وإذا كنتم بحاجة إلى شراء بعض الحوائج يمكنكم أن تكتبوها وأحضرها لكم...

كانت مفاجأة رائعه في أول الأمر،إذ أنها تحوّل كبير جداً في التعامل معنا... بدأت الأموال المخبأة تخرج لتستقر بيد رئيس المهجع والذي يقرر مع قلب المهجع ما يلزم المهجع من أغراض رغم أن أبو عوض سيأخذ أضعافاً مضاعفةً من السعر ويقدم المال بعدئذ للمساعد نزيه قاتله الله....وبعد أيام عرض أبو عوض أنّ بإمكانه نقل أفراد من المهجع مقابل مبلغ من المال....هنا بدأ الحزن الحقيقي فنحن يعزُّ علينا أن نفارق أحداً وبدأ الابتزاز يزداد يوماً بعد يوم..حتى فرغ المهجع من المال....

وما إن أحسسنا بأمان نسبي حتى أُعلن عن تقديم مسرحية يوم الخميس وكان مؤلفها وبطلها الممثل الرائع أنس نينو وياسر لولو بعنوان نهر الجنون... ياللروعة !! الروح تشتعل في الأفئدة الحية لتقدم ما تستطيع لتخفف عنا وطأة السجن الرهيب ... القصة تحكي قصة نهر احتكره أحد الإقطاعيين لحسابه وحساب مزرعته حتى فني زرع الضعفاء وظمئ قلب الفلاح فقامت الثورة ضد الظلم وعاد النهر للتدفق من جديد...

وبعد هذه المسرحية قمتُ بتأليف مسرحية تتكلم عن اليهود ومكرهم مع السلطان عبد الحميد وكيف عرضوا عليه ثمن فلسطين وكيف كان موقف السلطان منهم وقمت بتمثيلها مع بعض الإخوة ولاسيما مازن شيخ الكار الذي كان صوت الإعلام الجميل لمهجعنا الفريد والمتفرد بإمكانياته الوقادة..وبدأت عجلة الأدب والشعر وكان شاعرنا وليد الصغير، ومن ثم برزت في عالم الشعر والأدب فكانت الأمسيات الأدبية لها موعد ثابت وهو يوم الخميس بعد صلاة الظهر، ومن ثم انتدبت إلى المجموعة الإعلامية في المهجع.. وأخذنا نحتفل بالأعياد ونقوم بالزيارات إلى الإخوة المتخاصمين لنحلَّ المشاكل العالقة وهكذا سقطت نظرية ظافر.

- كيف ترى ياظافر هل الرخاء فرقنا؟؟؟

- انتظر لاتستعجل إن ما يجمعنا ليس الأخوة كما تدعي وإنما هي الضرورة والحاجة للعيش المشترك إن الأخوة حجة لعلاقات عاطفية وتعلقات واهية.

- وكأنك تنأى بنفسك عن كل هذا وتنتقد الجميع على حد سواء وهل يستطيع الإنسان أن يحيا بالعقل دون العاطفة ؟

- نحن نعرف أن نفرق بين التعلقات وبين العاطفة.

- أتريد مهجعاً من الأنبياء المعصومين عن الخطأ... ويصب على رؤوسنا أبشع أنواع التعذيب..ألا ترى كيف يفقد بعض الإخوة عقولهم انظر إلى الشامي كيف امتنع عن الطعام حتى مات وكذلك عبد الناصر ذلك اللاعب الفنان بلعبة الكاراتيه كيف أصيب باعتلال للعظام وتوفي بين أيدينا وآخرون وآخرون أنت تعرفهم.
- إنها محنة وعلينا تجاوزها بأي طريقة كانت... أردف ظافر.
- هل الضرورة والمصلحة الخفية تدفع الإنسان لكي يضحي بروحه من أجل الآخرين ؟؟... ألا ترى سعيد كيف قدم نفسه للعقوبة بدلاً مني ألا ترى عبد اللطيف رئيس المهجع كم يتحمل من العذاب في سبيل التخفيف عنا ؟؟
- إنها حالات فردية وستنبئك الأيام بما سيحدث في المستقبل. للإنسان رأسان إن عمل أحدهما سيتعطل الآخر لو أني مدير السجن لفتحتُ أبواب الرخاء على مصاريعها وسترى حينها كيف سنقتل بعضنا البعض.
- يا أخي هل نحن بشر مجردون من أي مبدأ ؟؟!! إذا كنا كذلك كان أولى أن نتقاتل منذ البداية على قطعة خبز صغيرة... إن قلب المهجع كان يخص المرضى بحصة طعام مضاعفة ورغم

الجوع كنا ننظر إلى إخوتنا المرضى بحب ونتمنى لهم المزيد من الطعام إن أمكن.

وبينما كنا نتحدث فتح الباب...

- ولك رئيس المهجع هذا هو المسؤول الصحي وقد أصبح من مهجعكم لا أريد مشاكل مفهوم ؟؟
- حاضر حضرة الرقيب...

دخل الطبيب واسمه قاسم بغدادي... من مدينة دمشق في السنة الأخيرة في كلية الطب،نظراته حادة وذكية، شخصيته رائعة ومحببة.. إخواني الفكر والتفكير.. عالم بأمور الدين ومتفقه بالفقه الشافعي وكفاه فخراً أنه قبل هذه المهمة المستحيلة إذ أصبح طبيباً للأمراض وكان ينبوعاً لفكر جديد..

استقطب قاسم أفراد المهجع بكافة احتياجاتهم وكان مثل المنقذ للغرقى الذين يتخبطون بين أمواج الموت العاتي..أخذ يعمل ليلاً ونهاراً فمن محاولاته لإنقاذ فاخر الذي أصيب بشلل نتيجة كسل وظيفي إلى الحالات النفسية المزمنة إلى الأعمال الجراحية الاضطرارية التي يقوم بها بوساطة أدوات بدائية مثل الإبرة وقطعة حديدية من بقايا ساعة... ومع التطور الذي حصل في السجن بدأ الشباب يتوقون للتغيير والانتقال إلى مهاجع الإخوة الكبار كي

ننهل من علمهم ومعرفتهم بعد أن ضنَّت علينا الجدران وباعدت بيننا وكنا نتوق لنتعلم عن ديننا وفكرنا ما يكون لنا عوناً في محنتنا فانتقل عمر... وكان وقع انتقاله حزناً على كثيرين منا كما انتقل أنس نينو بعد الاتفاق مع قلب المهجع على أن ننتدبه ليأتي لنا بما تعلمه من المهاجع الأخرى.....

وضعنا ما لدينا من مال في جعبة واحدة بيد قلب المهجع وبدأت الخيرات تدرّ علينا من خضرة أو حليب مجفف وأدوية وبدأت الابتسامة تجد لها مكاناً على وجوهنا بعد أن مرت فترة طويلة نسينا فيها كيف نبتسم... وبعد فترة وجيزة عاد أنس نينو محملاً كما ظننا بالعلم الموعود الذي سيحيي القلوب العطشى للعلم والمعرفة، انتظرنا يوماً بعد يوم لكن أنس لم يفصح عن أي محاضرة له وبعد أسبوعين من الانتظار وقف أنس ليحدد موعداً ثابتاً لطرح العقيدة الطحاوية عبر شرح جوهرة التوحيد... الاسم كان ضخماً على عقولنا «العقيدة الطحاوية» ياله من اسم... وتوالت المحاضرات وازداد التعقيد في عقولنا فمن صفات مشتركة إلى صفات منفردة إلى أكمام ولكل كمٍّ شيئاً ما متصل وآخر منفصل وهكذا اشتبكت التعقيدات في أذهاننا ونحن المؤمنون بالله كما في القرآن ونبذل أرواحنا في سبيل ذلك اقتحمت علينا فلسفات اليونان والفرس دون سابق إنذار وهاجمتنا الظنون بافتراضات وهمية ودخلنا عالم

الافتراضيات..واهتزت بعض المعتقدات ..وتوالت الأوهام والظنون مما دفعني أن أطرح مشكلتي مع أصدقائي إلى أن اتفقنا أن نعود إلى إيمان العجائز... كما أن أنس قد لاحظ الخطأ من طرح ما تعلمه هناك في مهاجع الكبار فتوقف عن متابعة محاضراته واختتم بقول العجوز للإمام الغزالي «لولم يكن عندك ألف شك بالله لما أوجدت ألف دليل على وجوده»

بدأت قبضة قلب المهجع تتفكك شيئاً فشيئاً إذ التف قسم من المهجع حول الطبيب وقسم آخر حول شاب قدِم من مهاجع أخرى بدأ يطرح الأخذ من القرآن وترك السنة وأنه لا فرق بيننا وبين الصحابة فهم بشر ونحن بشر ويمكن لنا أن نفهم القرآن كما فهمه الصحابة....وآخر يدعى ياسر أسس جماعته ويعتبرون أنفسهم أنهم معفيون من كثير من العبادات في السجن حتى الصلاة فلها ترخيص وفهم آخر غير الذي نفهمه...

وذات مساء جلست مع خالد وكان حزيناً على وضع المهجع الذي بدأ يتفكك أمام عينيه وهو غير قادر على دفع الأفكار الغريبة المتسللة إلينا والأمراض الفكرية التي انتقلت إلينا من مهاجع أساتذتنا الكبار في المهاجع الأخرى واقترحت عليه أن ننشئ مجموعة من الشباب الموثوقين ليتغلغلوا عبرالرؤوس المتمردة لتطويق حركتهم لكنه تخوف من أن نفقد تلك المجموعة عبر إقناعهم بالأفكار الدخيلة علينا:

- يا أخي أصبحت من الجاهلين في نظر كثيرين أرجو أن يختاروا المثقف الذي يقودهم إلى العلم والمعرفة..
- لا يا أبو منصور إنت الكل بالكل إنت تعرف أننا كصفحة بيضاء وهذه الأفكار ستبقى كزوبعة في فنجان..
- أظن أنني تعبت من المسؤولية..
- لا يمكنك أن تقول ذلك، أنت موضع ثقة الجميع..
- لا.. معاذ الله..ولكني أريد أن أرتاح.

انفرد أبو منصور بنفسه فترة من الزمن دامت أياماً أو حتى أسابيع، عيون الشباب وقلوبهم تراقبه وتَحفُّه، لم يكن يعرف التكلم كباقي المتفلسفين ممن يحاضرون بيننا ولكنه كان يعرف كيف يعمل ويعمل ويضحي بصمت.....

اعتزل أبو منصور الجميع ولكنه لم يعتزل أبداً واجبه تجاه إخوانه... إذ بدأت المراسلات مع المهاجع الأخرى عبر المورس المتفق عليه حسب الأحرف الأبجدية وقُدّر لنا أن يكون القيادي في جماعة الإخوان المسلمين واسمه أحمد سالم معتقلاً في المهجع المجاور لنا وهو المهجع الثامن والثلاثون... وأصبحنا نستشيره في كل صغيرة وكبيرة وأصبح لدينا مجموعة من المراسلين المعروفين بدقة السمع وترجمة المورس القادم بسرعة كبيرة وكان منهم رافد ومضر

واستعاد قلب المهجع رباطة جأشه وبقي متماسكاً رغم الأفكار التي بدأت تزرع الفرقة والكراهية بين الشباب...

بعد عام تقريباً من فتح عيوننا... بدأت الأمور تسوء أسوأ مما كانت عليه الأمور وألغي كل شيء وعدنا إلى تغميض العيون والتعذيب الأعنف في تاريخ سجن تدمر العسكري... وأخذت العيون تتعلق بخالقها..ترجوه بكل آي القرآن وبكل عمل صالح عملته أيدينا أو تحملناه في سبيل الله... وكان الله معنا أحاطنا بلطفه وأنزل علينا السكينة بالقرآن....لم أكن شجاعاً كأبطالنا الذين يفتدوننا في كل وقت وحين ولكنني لم أكن جباناً أيضاً فعندما تزيغ العيون تحت السياط أحس بالطمأنينة تتنزل علي وأحافظ على رباطة جأشي ... وهنا وقف عبد المعين السوطري ليتصدى لمهمة رئاسة المهجع بعد أن قدم عبد اللطيف مارتيني كل ما عنده من قوة وعافية،له من الله جزيل الثواب... أما عبد المعين هذا الشاب الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، تصدى للهجمة القاتلة من قبل الشرطة ومما أذكر عنه كما كان يقول يا أخي بدل أن تُخرج الزفرات محملة بالهمِّ والحزن قل سبحان الله... حَمِّلْ زفراتك المحرقة تسبيحة علَّها تُكتب في صحيفة عملك.....كان مثالاً للصبر والشجاعة والمرحلة التي نمر بها من أصعب المراحل وأشدها عنفاً من قبل الشرطة مما دفع قلب المهجع إلى التفكير بالتمرد وبدأ التحضير لذلك بصمت

وسرية تامة... المشكلة أننا كنا جميعاً مميزين برؤوسنا الحليقة فبدأ خياطنا منذر بصنع شعر مستعار من معطف مصنوع من جلد الماعز...أخذنا نخيط الألبسة المناسبة لذلك، والاتصالات مع قيادتنا في المهجع المجاور على قدم وساق وبعد أن استطلعنا النوافذ الجانبية التي سيتم الاختراق منها واقتربت ساعة الصفر وكان التأهب على أتم وجه، فلاعبو الكاراتيه بدؤوا يدربون بعض الشباب للاقتحام وأدركنا أننا أمام موت محتم..وعلم المهجع بأكمله بالمخطط فوقف الطبيب بوجهه وقال :

- ماهذا؟ إنه لعب أولاد أتريدون أن تحددوا مصائر الكل... إن هذا انتحار والانتحار جزاؤه جهنم...

وانقسم المهجع إلى رافضين وموافقين... فالرافضون حجتهم أن العمل محض انتحار... وأما الموافقون فيقولون... أما كفانا ذلاً... دعونا نموت بشرف ولو مرة واحدة في هذا السجن الذي لم يسجل بطولة جماعية... فلنمت أعزاء أيها الشباب بدلاً من أن نموت مثل الخراف ساجدين على أحذية هؤلاء الحقراء.

وطال السجال بيننا إلى أن جاءتنا الأوامر من القيادي أحمد سالم بإلغاء العمل... وهكذا عضضنا على أصابعنا من شدة التعذيب والتنكيل فكم من ليلة قضيناها واقفين ورافعين أيادينا إلى الأعلى..

وكم... وكم... و... إلى أن فُتحت نافذة الباب وجاءتنا الأوامر بأن ننطلق بأمتعتنا إلى مكان ما... في باحة موت أخرى... وبين أيادي مجرمين آخرين.....

وانقسمت الأسرة الكبيرة..وتشتتت القلوب التي ألفت بعضها ووجدت الأنس بعد الوحشة والحنان بعد الغربة والقوة بعد الضعف....وكما لو أننا انتزعنا مرة ثانية من أحضان أمهاتنا.....

# مهجع (٢٨)

دخلت مع ستين من أصل مهجعنا القديم... إلى هذا الوطن الجديد وتفرق البقية إلى المهاجع المجاورة وأهم ما في الأمر أن أبو منصور لم يكن معنا وبقي جزءاً مهماً من قلب المهجع فأنس نينو استلم قيادة المهجع الجديد وبعد فترة وجيزة أُدخل على المهجع رجل اسمه أبو زيد وكان أغلب ظننا أنه مخبر من قبل الإدارة فساد الخوف داخل المهجع وامتنعنا عن الصلاة وانتدبنا مجموعة من الشباب ليلتفوا حوله ويحيطوه دائماً ليصرف النظر عمَّن يصلي أو يحفظ القرآن وهكذا عاد إلينا الهم الداخلي بصورة مخيفة... وتشتت الجسد الذي حافظ على قوته خمس سنين من أصعب ما قد يمر على ابن آدم... وشعرنا بالفرقة وبدأت أكتب القصائد التي تجسد الواقع وتربط الواقع بالتاريخ الإسلامي فكتبت قصيدة القلعة وقصيدة القمر وقصائدأخرى وبدأت حركة منظمة لِلَمِّ الشمل فإذا بهم يشكلون تنظيماً سرياً يهدف إلى ضبط المهجع وبعد أن دعوني إليه جعلوني أميراً لهم وبايعوني على ذلك.....

الأخبار كانت تصل إلى أنس نينو أولاً بأول وكان غير راض على كل هذا لخطورته ولعدم جدواه وكان محقاً في ذلك فعمل على

فرط العقد حبة فحبة وتلاشت هذه الحركة بعد أن عبرت عن طموح وعزيمة وقوة لا تنضُب.....تحركاتنا محسوبة إذ أن أبا زيد المخبر كما كنا نظن يترصد بنا... وبعد عدة أشهر فتحت النافذة.. وصرخ الشرطي..محمد أبو زيد....التفتت الوجوه محملقة خائفة وارتبك أبو زيد واصفرَّ وجهه فبعضنا ظن أن وقت العرض والنشر للمعلومات قد حان ولكن التوقيت الصباحي للنداء واليوم هو الأربعاء... ياللهول..أحس أبو زيد أنه يُقادُ إلى مصيره الأخير إلى المشنقة ونحن بين تصديق وتكذيب وقف الرجل وودع الجميع بكلمات شكر وعرفان على ما لاقاه من الشباب الأبطال كما وصفهم ورحل تاركاً ألبسته وما يملك من مال لرئيس المهجع...

الأمر كان كمن تلقى صفعة على وجهه... حزناً عليه وسمعنا تكبيراته تشق عنان السماء لتعود إلى قلوبنا ونتندر بكلماته وبمواقفنا الخائفة منه طوال هذه الفترة....

ربما مؤامرة جديدة تُحاك... من قبل مَنْ لا ندري فهناك تحركات مريبة من فريزصاحب الحلم الفريد وثلة من الشباب... ربما مؤامرة أو مبادرة إلى الإدارة تتضمن طلب استرحام وتواقيع بالدم... الفكرة أخذت تستحكم بعقول بعض الشباب ولكن الخطة كانت بأنه لابد من مبادرة حسن نية من قبلنا كي نصل إلى أعلى الرتب في إدارة السجن.

حاول أنس أن يطلب ورقاً من إدارة السجن كي نقدم طلب استرحام ولكن محاولاته باءت بالفشل وانقسم المهجع بين مؤيد ومعارض واشتدَّ الحديث عن إمكانية الإفراج عنا بعد المبادرة ولكن الأكثرية اعتبروا هذا محضَ وهم ونسيان لقضيتنا المبدئية..وكان لابد من ثمن يقدمه الفريق المؤيدً..وهنا تكمن المصيبة إذ انقدحت في رأس فريز فكرة مخيفة تمَّ تنفيذها بسرية تامة من قبل أنس وفريز وآخرين.....اليوم..ندخل في السنة السادسة للاعتقال... والنهاية غير معلومة..ربما كان كلام القاضي صحيحاً ومخيفاً بأنني سأقضي اثنتي عشرة سنة... يعني أن المدة قد انقضى نصفها تقريباً... ولكن الفكرة التي أريد أن أتحدث عنها مختلفة بالكامل..هو أن فريز..هذا ماذا يمكن أن يتذكر بعد هذه الفترة كلها ليقدمه للسلطة... كان يقف أمام الباب يتجهز للإنطلاق عند إدخال الفطور...

- حضرة الرقيب يوجد سجين يريد أن يكلمك بشيء ضروري» قال رئيس المهجع»
- أحضره.وجاء فريزمسرعاً
- حضرة الرقيب لدي معلومات تخص الأمن العام
- الأمن العام ؟؟وما هي ؟؟
- لا أتحدث بها إلا إلى مدير السجن.
- ادخل سأخبر سيادة المدير.

دخل فريز ووجهه ممتقع اللون... مرتبك التصرفات وكأنه ارتكب جريمة ما..وبدأت الاستدعاءات لفريز تتوالى يوماً بعد يوم..وذات يوم استدعي إلى القيادة في دمشق..وغاب بعدها عدة أيام لم ندر ما يحصل معه... وعاد فريز محملاً بالخزي والعار ماذا فعل ؟؟وماذا حدث؟؟ لاأحد يعرف إلا أنس نينو الذي كان يداريه كما تُدارى الحية الرقطاء ربما كان أنس خائفاً منه من أن ينكشف أمر من أمور المهجع التي يحافظ عليها كل فرد منا وكأنها من أخص خصوصياته... وذات مساء جمعني مع أنس لنتحدث في شأن ما، فزلَّ لسان أنس وقال: إن القاعدة ال....

- أي قاعدة تتكلم؟؟
- احمر وجه أنس وانتفضت عروقه وقال:
- إن ما سأكلمك به لهو سر عليك أن تكتمه
- فقلت: لك ذلك ولكن أعلمني بما يحدث

إن فريز كشف للسلطة قاعدة لشباب الإخوان في دمشق وإن الجنود حاوطت المكان وأخلي المكان من ساكنيه واقتُحمت القاعدة..ولحسن الحظ..كان المسكن المقصود قد أخلي من زمان طويل... في الحقيقة لم أكن أعلم بالأمر وكان مفاجأة بالنسبة لي كما هو مفاجأة بالنسبة لكل الشباب.

كنت أستمع لأنس وقد احمر وجهه وانتفض عرقه من جبهته العالية.

كثر اللغط عن فريز وأخباره فوقف أمام الجمع وتحدث إليهم أنه دافع عن قضية الأحداث وأننا ليس لنا أية علاقة مع أي تنظيم وأننا نطلب الرحمة من سيادته والعفو من شيم الكرام.....

توالت الأيام القاسية ونسي أو تناسى الشباب أخبار فريز كما نسوا ذات يوم الكشف الإلهي الذي حدث معه وبدأ مرض السل يتسلل إلينا وطلب المسؤول الصحي أبو أنس اللقاحات اللازمة للوقاية من هذا المرض وجاءت اللقاحات وبدل أن نُحقَن تحت الجلد حقننا المسؤول الصحي في الأدمة طبعاً لقلة الخبرة... !!!!

وأخذت الجرثومة تتسلل إلى أجسادنا وإلى عضلة الكتف وكأن ما يصيبنا من هم وألمٍ لمْ تكتمل فصوله كلها والحمد لله.

وعبر هذا الخضم من الحزن كنا نجد ما يخفف عنا ولو شيئاً من الهم فها هو سرَّاج الشاب اللاذقاني المعروف بثقافته الرائعة ودمه الخفيف ولسانه اللاذع..يأتي بثلاثة صراصير «وما أكثرها في هذا المهجع» ويأتي بصابونة ويحممها..ثم يربطها بخيط مشترك ويلعب بها ويصبحوا كأصدقائه....ورغم أن ذلك الشيء مقززاً لكنه هناك يجلب الانتباه والابتسامة...

البرد شديد هذه الأيام فأصابع السحاب بدأت تعصر كبد السماء دون رحمة.. وليس على جسدي سوى قطع بالية من الأقمشة رغم أن حالي كحال معظم الشباب ولكن حالي لم يُرضِ كثيراً من الشباب فأخذ أحدهم يبحث لي عن شيء يستر جسدي الهزيل وحيث المرض يتربص بالجميع وبينما كنا نتمشى في الساحة الضيقة المتبقية من المهجع لاحظنا أحد الشباب واسمه نضال أن فراشه سميك وبعد المراقبة تبين أنه يخبئ فيها عشرات كنزات الصوف ويحرص على أن لايراه أحد من الشباب وتدخل أحدهم ليجلب لي كنزة من عنده وبعد جدال طويل أتى لي بها وبعد أن علمت بالأمر رددتها إلى بخله وأصبح أشهر من بخلاء الجاحظ ومحطاً للازدراء.....

هل يمكن أن ترى مثل هذه النماذج في هذه المحنة... الحمد لله أنه لم يكن من مهجعنا الأصيل وأبطاله العظام....

بقينا في هذا المهجع قرابة العام والنصف ثم جاءت الأوامر بالتحرك.. ولكن إلى أين ؟؟؟ الله أعلم.

سار الطابور المتهالك بما يحمل من أشلاء أقمشة تدعى «ثياب».

ثقتنا بالله أنه لن يضيعنا أبداً فكل ما نعيشه زيادة وفضل ومنّة بالنسبة لنا ونحن قدمنا أرواحنا هدية له وحده وفي سبيله هو... وسار الطابور وكل منا يخبئُ رأسه بما يحمله ليتفادى ضربة مفاجئة من سوط أو عصا..

وقف الطابورأمام مهجع رقم (٣) ودخلت مع عشرين آخرين وأغلق الباب بعد أن أدى رئيس المهجع بصوته العالي القوي.. «المهجع انتهى من التفتيش.....» التفت لأرى رجلاً في الربع الأخير من عمره رأسه أبيض من الشيب جسمه ممتلئ.. صوته يهز الباحة كلها....

جلست مكاني وكانت هذه أول مرة نجتمع مع من هم أكبر منا....أساتذتنا الكبار قادتنا ....زعماؤنا الذين قدمونا لهذه المحنة قرباناً لله أو ربما اختلط الحابل بالنابل والكبير بالصغير..

جلست لأرى حالة مزرية بكل ما تحمل الكلمة من معنى... المهجع مليء بالأوساخ والقذارات... وكل فرد ليس له همٌ سوى نفسه وخلاصه، دون النظر إلى مصلحة أحد في المهجع. مشيت إلى داخل المهجع الذي كان يتكون من غرف متداخلة... رأيت شاباً كردياً كان من أصدقاء أخي الكبير واسمه ذهني عبدو... تقدم إلي ذهني وعانقني وجلسنا معاً لوقت طويل نتذكر الأيام الخوالي... لقد كان ذهني عبدو رجلاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى وقدم لي كل ما يستطيع من معونة وسألته عن رئيس المهجع فقال لي أن اسمه أحمد غنوم.. ياللدهشة!! اسمه مطابق تماماً لاسم والدي فطلبت مقابلته وجلسنا وقلت له إن اسمه مطابق لاسم والدي فابتسم قائلاً:

أعرف والدك إنه كان ضابطاً في الطيران وكنا في نفس الكتيبة وكان يناديني بابن العم... نسيت أن أقول لك إنني العميد الركن أحمد غنوم وعندما عرف الشرطة أنني عميد وضعوني رئيس مهجع لكي يذلوني ولكني أُعجبك فكما أنكم أبطال فنحن أبطال...

اغرورقت عيناي بالدموع وتخيلت والدي يتكلم كلامه... وقلت له بصوت من يكتم بركاناً من الدموع:

طبعاً أنت بطل إن رجلاً في سنِّك يقارع هؤلاء الحقراء بشكيمته وعزة نفسه لا بد وأن يكون بطلاً في الدنيا والآخرة.

لاحظ العميد حزني وكأنه حسب أنني حزين على نفسي فربت على كتفي بحنان وقال:

- لا تحزن يا بني... إن الله اختارك كي يكون لك شأن في المستقبل ... انظر إلى الأنبياء كم تعرضوا للأذى ليكونوا منارة فيما بعد فهاهو سيدنا يوسف عليه السلام مكث في الجب وبعدها مكث في السجن..أليس ذلك تحضيراً وتهيئة ليقود بني إسرائيل إلى سبيل الصلاح والهدى... لاتحزن يا ولدي واعتبرني بمثابة والدك واطلب مني ما تريد وسأحققه لك ضمن إمكانياتي...

عندها بكيت أمامه كالطفل الصغير....تركني وركض إلى الباب ليستعد لإدخال طعام الفطور...

زيتون وقليل من اللبنة وقليل من الخبز هو نصيب مائة معتقل وبدأ فريق توزيع الطعام مهمته فكانت الزيتونات توضع مثل طابور الجنود المنضبطين وفقاً للطول والصحة وبعد عملية حسابية طويلة كانت حصة الفرد زيتونة طويلة وزيتونة قصيرة... كانت هذه الطريقة مفاجئة بالنسبة لي لم أر طوال حياتي مثل هذه الطريقة للتوزيع تذكرت قلب المهجع... يالهم من شباب تذكرت أصدقاءنا الأبطال الذين توزعوا في أنحاء السجن الرهيب...

بدأت التعرف شيئاً فشيئاً إلى الشخصيات المهمة في المهجع... فهناك أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات شافية وإلا فسأبقى أبحث قلقاً عن تلك الإجابات...

من هو المسؤول عن تركنا في هذا السجن كل هذه الفترة من ؟؟

ماذا تفعل جماعة الإخوان في الخارج؟؟؟

وكيف العالم لم يسمع بنا ؟؟

ومن هي الجماعة بالتحديد لقد كان أبناء الأمراء والزعماء أصدقاءنا لماذا نحن تُركنا للموت هنا وأبناؤهم أكملوا دراساتهم في جامعات تركيا والسعودية... هل همْ من معدن أنفس من معدننا؟؟؟

وكيف... يقومون بعمل خطير على مستوى الأمة ويدمرون جيلاً كاملاً من الشباب الرائع ؟؟؟هل نحن مخترقون ؟؟أم نحن جماعة بسطاء تلوح بنا الريح حيث تريد... أسئلة أكثر وأكثر تموج في النفس الثائرة..

أخيراً قيل لي إن في المهجع رئيس تنظيم المنطقة الشمالية، أي أنه مسؤول عن ربع مساحة سورية لابد أنه عقل مدبر..المهم رتبت معه موعداً... لن أنسى أبداً هذا الموعد كان يوم الإثنين وللمصادفة وزعت الحلوى التي قدمت من إدارة السجن اليوم وكان حصة الفرد قطعة صغيرة من الهريسة..وضع القائد قطعته على طبق بجانبه وأخذ يرمقها بعين الرضا والغزل... جلست أنتظره... وقف يرتب بعض أعماله... ثم التفت إلي معتذراً لتأخره ثم التفت إلى قطعة الهريسة فلم يرها..لابد أن أحداً قد اصطادها ووضعها في معدته ... فجن جنون القائد وتغيرت ملامحه واحتقن وجهه ونسيني تماماً وبدأت الشتائم الجنونية فانسحبت رويداً رويداً... ربما كانت قطعته هذه هي أهم بكثير من الأسئلة التي تؤلمني...

عدت مع أسئلتي وقد ازدادت الأسئلة بشكل مخيف..

من هذا الذي كلف هذا الرجل الذي يبكي على شيء من الدنيا بالتحكم بأرواح الشباب المجاهدين في المنطقة الشمالية... نعم إنهم المجاهدون لقد رأيناهم وهم يُقتادون إلى حبال المشانق وأصوات

التكبير تحفهم ولسان حالهم يقول: الآن ألقى الأحبة محمداً وصحبه.. ياللهول لقد وقعنا في مصيدة النظام الحاقد ووقعنا في مصيدة غبائنا السياسي وتصلبات أفكارنا وأحادية نظرتنا... بدأت أفتش بين الشباب عمن يعرف أصدقائي... خالد.. من يعرف خالد أبو عابد؟؟؟ وأخيراً:

- نعم أعرفه..رحمة الله عليه..

امتلأت عيناي بالدموع عند ما سمعت كلمة «رحمه الله» وأدركت أنه استشهد مع من استشهدوا فسألته:

- حدثني عنه؟؟

خالد نعم الشاب كان فدائياً محباً ومحبوباً «كنت أعرف ذلك الكلام ولكني أحب أن أسمعه مراراً وتكراراً» وتابع قائلاً:

لقد أصيب بالكوليرا ولا أحد منا عرف ذلك رغم أنه يوجد عندنا عدة أطباء...

وسكت برهة وهو يحاول أن يعبر عما يقول:

سهرنا عليه..وذات ليلة كنت أجلس قربه فتح عينيه وبابتسامته المشرقة قال لي:

انظر هناك وأشار إلى السقف فنظرت حيث أشار لم يكن يوجد شيء مميز وتابع خالد:

- انظر إلى تلك الشجرة الخضراء... هناك رسول الله ﷺ.. أريد أن أذهب عنده... ثم أسلم روحه إلى بارئها... رحمك الله يا خالد أنت وجميع إخواننا....

ثم سألت عن أبي صلاح ذلك الشاب الكردي فقيل لي كيف خرج إلى حتفه بقوة لا يهاب الموت حتى إن الشرطي لم يستطع أن يمزق المنشفة ليصنع منها عصابة يغطي له عينيه فأخذ منه المنشفة ومزقها إلى قطعتين ورمى بها إلى الشرطي... وبعد أن شنق الرجال أنزلت الحبال وألقيت أجسادهم الطاهرة على أرض الباحة وأخذ الشرطة يضربون الجثث بالسياط..ويبولون عليها... يالحقارتهم... إن هؤلاء الرجال لم يهابوا السياط أثناء حياتهم فهل سيهابونها وهم بين يدي الرحمن... وسألت عن واثق وفؤاد وعن أبي رواحة وعن أبي عجاج وكل من أسأل عنه كان ضمن قوافل الشهداء.....

بعد فترة وجيزة جاءتنا الأوامر بأن نحمل أشلاءنا وننتقل إلى مهجع جديد يحمل رقم (٧)

المهجع قديم جداً ربما بناه الفرنسيون أيام الاستعمار لدوابهم.. آنذاك واليوم هو مقر السجناء... دخلنا المهجع وكان فيه ما هبَّ ودبَّ من مختلف الأعمار فرأيت من هو في السبعين من عمره، ومن هو دون ذلك بكثير.

ويوماً بعد يوم ألفنا النظام الجهنمي للمهجع وانبرى لرئاسة المهجع الشاب وائل دادا..ومساعده عادل وهم من شبابنا وعرفنا أنه يوجد عدة مخبرين في المهجع فتجمعنا على بعض وأصبحنا كدرع يصعب اختراقه من قبل أحد غريب..ويرقد قربي صديقي كمال وعلي وآخرون.. واليوم كان النقاش مؤلماً وحساساً.

- هل نحن تعذبنا أكثر أم الصحابة؟؟؟سأل كمال وكأنه يعرف الإجابة ويريد أن يوثق شيئاً من قناعاته.
- الصحابة يا أخي تعذبوا وأكلوا أوراق الشجر ومنهم من قضى نحبه من التعذيب وآخرون قضوا في المعارك... «أجابه سعيد».
- اليوم يوافق السنة السابعة لاعتقالنا... يا أخي انذبحنا.. أعصابنا تلفت...
- ومددت يدي فإذا بها ترتجف كرجل في التسعين من عمره.
- أملي بالله يوم القيامة أن يقول لنا كما سيقال لأهل بدر: ادخلوا الجنة بلا حساب ولا عقاب.
- يا أخي سؤالي واضح..من تعذب أكثر؟؟؟
- أقول نحن والله أعلم... إذا أردنا أن نقارن الأمور بشكل مادي ومحسوس وإذا أردنا أن نأخذ الفترة الطويلة التي قضيناها بالحسبان أجاب عماد.

أما يكفي أن الرسول الكريم كان معهم يشد من أزرهم ويتنزل عليهم الوحي فيزداد صبرهم قوة وشكيمة «أردف كمال قائلاً».

اعتبر سعيد أن ذلك بمثابة إهانة للصحابة إذ نقارن أنفسنا بهم.

والله لا نتوصل لأقدامهم الطاهرة... وإذا كان الرسول ﷺ معهم فالقرآن معنا ولا تنسوا كيف يسر الله لنا القرآن فأصبح الملاذ والطموح.

إذا كان العذاب الذي نتعرض إليه هو أشد من عذاباتهم فإن هذا ليس بالضرورة أن نكون أفضل منهم معاذ الله..ولكن نريد أن نُشعر أنفسنا بالفخر ولو قليلاً لما تحملناه أوليس هذا شيئاً من حقنا؟؟؟»قال كمال وقد احمر وجهه:

ألم يقل رسولنا ﷺ «واشوقاه إلى أحبابي قالوا: أولسنا أحبابك يا رسول الله قال: لا، بل أنتم أصحابي... أحبابي أولئك الذين آمنوا بي ولم يروني «وتابعت قائلاً أرجو أن نكون أحبابه فإن كنا كذلك فيا لفرحتنا يوم القيامة وقضيةُ مَنْ أفضل؟ هذا ليس من شأننا.

- أظن والله أعلم أننا لسنا بأقل منهم ولكن العبرة في الختام فأرجو الله أن يثبتنا..
- كان السلف الصالح يحملون مسؤولية الدعوةعلى أكتافهم، أما نحن، فقد وضعتنا الأقدار في هذه المحنة رغماً عنا والصحابة

الكرام اختاروها طوعاً وتحملوها رغبة منهم أما نحن فنكاد لا نطيق هذه الحياة التي أُكرهنا عليها، نتعملق ونقارن أنفسنا بهم!!

ومن قال لك أنهم تمتعوا بمحنتهم..ألم يقل الرسول ﷺ «لكن عافيتك أوسع لنا»

وهكذا دام النقاش والنتيجة أن لكل رأيه وهو حر بقناعاته...

في المهجع كان معنا طبيب بل أشهر طبيب في الوطن العربي إنه الدكتور نزار الدقر مؤلف كتاب «العسل دواء وشفاء»..أحببناه وتعلمنا منه الكثير واعتبرنا كأبنائه...

وتوالت الأيام وكنا نرى من خلال الثقوب الموجودة في الباب سجناء يتمشون ورؤوسهم مرفوعة وينعمون بزيارات خاصة ومدعومة... وذات يوم كانت الأدوية التي طلبها رئيس المهجع من الإدارة موضوعة عند الباب... اقترب أحدهم وتناول بعضها وخبأها في جيبه مما أثار حفيظتنا وأردنا أن نعرف من يكون هؤلاء وماذا يحملون في صدورهم من حقد علينا حتى الدواء القليل الذي يصلنا بشق الأنفس يسرقونه من أمام باب مهجعنا ومع الأيام عرفنا أنهم من حزب العمل الشيوعي !!..

لابد أن أذكر في هذا المهجع الشاب الحمصي الرائع بسام سفورالذي ضحى بكل شيء يملكه وقد كان ممن تأتيهم بعض

الزيارات وكذلك أبو حافظ... الشاب الحموي الكريم وغيره الكثيرون حيث جمعنا ما لدينا من مال في جعبة واحدة وأخذنا نتصدى لمرض السل الرهيب الذي بدأ يتسلل إلينا عبر اللقاحات الخاطئة أو ربما من خلال العدوى.

لا أريد أن أذكركم وأذكر نفسي بأن برامج غسيل الأدمغة مستمر من قبل الإدارة..ولكن السفينة تمشي بإرادة الله ... تُبحرُ عبر الأمواج والظلام وربما تتمزق أحياناً فتتماسك وكأن عصا موسى التي تحيي الموتى بإرادة الله قد مسَّت إراداتنا فكنا نبتسم والدماء تسيل من ركبنا وأكواعنا... وكم من موقف تسيل له الدموع تتحول الدموع إلى ضحكة ونكتة.. هكذا تمر الأيام ونقصُّ على بعضنا ما قصصناه لعشرات المرات فإذا تكلم أحدنا ليشق جدار الصمت القاتل وجد من يقول له: لقد سمعناها للمرة المائة والخمسين فنضحك كلنا...

اليوم كان يوماً حزيناً بالنسبة لي فأحد أصدقائي قد أصيب بالسل وهو أحمد وبدأ سعاله المدمى يدوي في أرجاء المهجع.... وجلس بعيداً خشية أن يمتد المرض إلى آخرين... شعرت بالاختناق وجلسنا وأصدقائي في منتصف المهجع... والليل قد التهم أشعة المصباح المصابة بالسل أيضاً ومن بعيد أصوات قادمة من الزنزانات الانفرادية ..تلك الأصوات تزرع الخوف والحزن على من تُرك وحيداً هناك يتأوه طوال الليل..فبدأ النقاش:

- «يارب استجب لنا والله نحن عبادك المظلومون يا كريم» هل ترون أن الفرج قريب يا شباب ؟؟
- قريب؟؟!! ربما الموت أقرب إلينا من الفرج.
- ادعوا الله عساه يفرج علينا «يارب..إن لم يكن من أجلنا فمن أجل أهلينا المسنين الضعفاء يارب»
- هل ستتغير قوانين الكون من أجل دعاء دعوته؟؟؟
- نعم تتغير ولِمَ لا تتغير؟ أليس كل شيء بيده وهو قادر على كل شيء قادر على كل شي نعم ولكن زماننا ليس بزمان المعجزات والخوارق..
- أخي نعلم ذلك ولكنه مسبب الأمور يخلق سبباً لكل شيء.
- هذا ليس من شأن الخلق إنه شأن لله وحده.
- ألم يقل ربنا في كتابه العزيز ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾
- إن دعواتنا مستجابة بإذن الله ولكننا قوم مستعجلون... نتعجل العطاء!!!
- أَبعدَ سبع سنين تقول لي نستعجل... ومتى إذاً لا نستعجل؟؟
- الصبر الجميل يا إخوتي...

- بدأت أشك في صلاحنا ألم يقل رسول الله ﷺ «رُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسم على الله لأَبَرَّه»
- كيف ستكون محنة وابتلاء إذا استجيب لنا عند أول ألم..وكيف يكون التمحيص ﴿وليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين﴾
- صبرنا على حكمك يارب... يارب عافيتك أوسع لنا.
- نحن حسبنا الله ولكن انظر إلى هؤلاء الشيوعيين ماذا حسبهم؟ ..القضية... دع قضيتهم تُواسيهم.
- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٧٦] الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت «إن لهم آلهة اسمها الطاغوت..الحمدلله على دين الإسلام..

قال أحدهم مختتماً وراضياً:

انظر إلى سيدنا يوسف ألم يلبث في السجن بضع سنين والبضع هي من ثلاثة إلى سبعة أو ربما إلى خمسة عشر.

أظن أنني أنظر إلى فلسفة الدعاء بشكل مختلف قليلاً... كما قال رسولنا ﷺ «الدعاء هو العبادة» هو عبادة لأنه اعتراف بالعجز الإنساني تجاه قوة الإله القدير... والاستجابة ليست ترغيباً للداعي أو شرطاً للدعاء وإنما الاستجابة المقصودة في الآية والله أعلم هي

الصلة الحاصلة بين العبد وربه فإن حصلت المنفعة للعبد وانكشف ضُرُّه فقد أُجيب وإلا فقد أُجيبَ بالصلة الحاصلة بين العبد وربه....

رحل الأصدقاء بعد أن توصلنا إلى نتيجة مرضية كل إلى عمله... في مهجعنا أستاذ للغة الإنكليزية يدعى أبو بتول وقد أنعم الله عليه بزيارة فقدم إلي خوخة كاملة هدية وقال لي:

- تفضل إنها لك...

ثم أردف قائلاً:

- إن الكرم يحتاج إلى شجاعة..
- بالفعل إن الكرم يحتاج إلى شجاعة حتى بالنسبة إلى تلك الخوخة البسيطة ولكنها كبيرة في الظرف الذي نمر به..

أخذت الخوخة وقدمتها إلى صديقي المريض...

اليوم أتممت السبع سنوات والنصف في هذا السجن... الصفرة تلتهم الوجوه والرجفة في اليدين والساقين وجاءنا شهر رمضان... يا مرحباً برمضان ومازلنا نخبئ الطعام كي نتسحر ونفطر عند المغرب وكنا نتحلق في زاوية بعيدة عن الأعين لننشد الأناشيد «رمضان أتانا في الأسر... رمضان حبيبي لو تدري»كما ألفتُ بعض الأناشيد عن الحرية وغيرها كما ألف الأخ يَنال أنشودة جميلة أصبحنا ننشدها، وهكذا تمر الأيام متسكعة على آمالنا وضاربة بأحلامنا عرض الحائط..

وذات صباح... فُتح الباب وبدأت الأسماء تذاع

- طريف غنوم
- حاضر
- خذ أغراضك الشخصية واخرج ....

خرجنا جميعاً..... الجو ليس بجو إفراج فالسياط تحيطنا وتتعطش لدمائنا... ربما إعدام جماعي..ربما..لاضير من أي شيء فقد استوى الماء والخشب... ثم بدأت الجنازير الغليظة تنتقل من فرد إلى آخر ثم بدأت الجنازير تحيط بأقدامنا ثم أخذت السياط ترقص رقصة الموت فوق رؤوسنا... تذكرت حينها كيف اقتيد الزنوج العبيد المختطفون من إفريقيا إلى أمريكا... طابورمن الجنازير التي تربط المعاصم مع بعضها البعض والأرجل مع بعضها البعض، وبدأت المسيرة.

- ..إلى أين لاندري.
- ..المهم أننا خرجنا من تدمر...

القلب يرقص فرحاً...

خرجنا من باب السجن وانطلق الباص عبرشوارع تدمر...

تجرأت أن أرفع رأسي لأرى..

كيف تنهب العجلات الأرض مخلفة آثار تدمر خلفها.

وتذكرت حينها القصيدة التي مطلعها:

يا تدمرَ الحمراء في حُلَلِ الدمِ  مهلاً فلا عشنا إذا لم ننقم

استمرت الرحلة قرابة الساعتين بعدها بدأ الباص يتمهل ثم توقف عند حاجز للشرطة العسكرية..إنه سجن صيدنايا العسكري.

وضعنا أولاً في حمام وأغلق الباب علينا ولكن أي حمام هذا لقد كان بالنسبة لنا أكثر من ممتاز وأجمل من حلم ثم قادونا إلى الاستقبال فأقبل أحدهم عليَّ وبيده عصا الشرطة العسكرية الغليظة كي يضربني بها فصاح به المساعد نزيه «وهو المساعد المشرف على تعذيبنا في سجن تدمر وقد انتقل معنا ليتابع برنامجه القاتل»..دعه... لا تضربه لولا أنه بسبعة أرواح لم يصل إلى هنا.

ثم نادوني باسمي إلى غرفة صغيرة يجلس فيها ضابطان..

- اسمع الآن أصبح اسمك خمسة وعشرين ما اسمك؟؟
- خمسة وعشرون
- اسمك أيها الغبي اسمك؟؟؟
- طريف غنوم..

وما إن لفظت اسمي حتى صفعني أحدهم وقال:

- خمسة وعشرون أيها الحقير.

فقلت حاضر حاضر خمسة وعشرون..

وهكذا تغيرت أسماؤنا ودخلنا.... إلى ذلك السجن الذي كان بمثابة الجنة بالنسبة لنا..

دخل كل عشرين سجيناً إلى غرفة وظننا بادئ الأمر أن الإدارة تتلصص علينا وأنها زرعت كاميرات في كل غرفة واعتقدنا بعد الفحص والتدقيق أنه لا يوجد مكان آمن إلا الدوش... فكنا إذا تحدث أحدنا بشيء مخالف نقول من باب الفكاهة «سجل يا دوش» «يا دوش أنا ما لي علاقة هو الذي تكلم»

وجاءتنا المساعدات من السجناء الآخرين من حزب العمل الشيوعي. فأبى كثير منا أن نأخذ شيئاً ولما قال أحدهم لأبي رافع:

- لماذا لا تأخذ شيئاً.. كل ما نأخذه اعتبره مكسباً.

فابتسم أبو رافع وقال:

- لا إنه ليس بمكسب..لا نأخذ الصدقات من أحد ولا نأخذ إلا من كريم..

وتذكرنا حينها كيف كانوا يسرقون الدواء من أمام مهجعنا ولكننا بعد أن التقينا معهم في هذا المكان قدموا ما يستطيعون

لمساعدتنا من باب الإنسانية كما أنهم اعتذروا لما حدث في تدمر من تصرفات غير مسؤولة ولا تعبر عن سلوكهم..وقد قام أفراد منهم بإيصال بعض الرسائل إلى أهالينا كما أنهم أخرجوا عبر لوحة خشبية حفرت لتكون مخباً لأسماء المعتقلين وبعدها أرسلت إلى الأمم المتحدة....

أما المساعد نزيه «قاتله الله» فكان لا يتورع في كل لحظة بالتهديد بإعادتنا إلى سجن تدمر وتلك كانت المصيبة الكبرى إذا أعيد عددٌ منا إلى هناك كما وضعت الإدارة من يعدُّ أنفاسنا ويحصي تحركاتنا فالمخبر لحلوح كان يكتب التقارير عن كل شيء إذ كنا نمحو الجرائد بالماء والصابون كي نكتب عليها فأصبحنا في نظره نمحو أفكار الحزب وإذا تكلمنا أو تجمعنا نكون نخطط للهرب من السجن فكان هذا اللحلوح سبباً في عقوبات كثيرة ووضع بعضنا في الزنازين ولكنه لم يفلت منا إذ تلقى عدة لكمات على وجهه ذهب على إثرها إلى المشفى والإخوة إلى الزنازين..ولكنه بعد ذلك أصبح كالقملة المفروكة كما يقال..

بدأت إدارة السجن بطرح بعض الكتب علينا مثل كتب نوال السعداوي... وكتاب لكريم بقردوني عن سيرة حافظ الأسد وكتاب عن الإخوان المسلمين «نشأة مشبوهة وتاريخ أسود»...

بعد سبع سنين ونصف قضيناها في تدمر... نتعرف على وجوهنا من جديد إذ حصلنا على مرآة لأول مرة كان البعض يضحك لما يرى وجهه والآخر يتفاجأ، فمنا من دخل السجن وهو في الرابعة عشرة من عمره وهو الآن في الواحد والعشرين ... أذكر في تدمر حين نحاول أن نتعرف على صورنا فننظر إلى آنية الشاي وهو ساكن.. كنت أحاول أن أتعرف على ما آلت إليه قسماتي ولكن عبثاً وها نحن اليوم نكاد لا نترك المرآة ... إنه لأمر مضحك... وبعد شهرين حصلنا على مذياع فتجمعنا حوله وكأنه كائن فضائي أو إعجاز خارق نحاول أن نتفاهم معه ونتعامل معه بشكل صحيح....

أما حياتنا فتوزعت بين قراءة الكتب التي تصلنا من مكتبة الشيوعيين عبر نافذة المرحاض الذي تطل على المهواة..وبين الرياضة التي نقوم بها كلما سنحت لنا الفرصة..كما أننا اختلطنا بحزب العمل الشيوعي وتعرفنا على أفكارهم كما كانت لي بعض النشاطات الأدبية إذ أقمنا حفلاً شعرياً أنا وصديقي رامي المفتي الذي كان قادماً من سجن المزة والشاعر أبو سومر وحظينا بإعجاب كبير..كما قمت بترجمة رواية غضب الملائكة وأخذ الشباب يتداولونها ويبدون إعجابهم الشديد بها..الحركة لاتهدأ بالنسبة لنا رغم كل شيء...

وذات يوم... وجدنا بيضة عصفور على نافذة الممر الطويل الذي يطل على المهاجع العشرة فتناولها محمد....وأخذ يدفئها بما يستطيع

حتى فقست البيضة..وأخذ يزق الشلفون الصغير وبعد أسبوعين أو ثلاث كبرالشلفون الصغير وأخذ يتنقل من كتف إلى آخر ونما الريش الجميل وأصبح العصفور تسلية الجميع وأصبح فرداً من العائلة الكبيرة... وأي فرد...!!! فقد تعلقت به قلوبنا حتى أنه أي العصفور اعتاد علينا وكنا نرمي له الطعام في الهواء فيطير ليلتقطه، في الحقيقة أصبح أعجوبتنا الجديدة.... ودامت علاقتنا مع العصفور قرابة السنتين.... فكنا ننقله من مهجع إلى آخر..وذات صباح وبينما كنا نتمشى في ممرنا الطويل وكما اعتدنا دائماً النوافذ مفتوحة..... فنحن لانخاف من أن يتخلى عنا صديقنا إذ طالما وقف على النافذة ثم عاد أدراجه إلينا... ولكنه الآن طار ووقف على النافذة العالية... وقفنا جميعاً متسمرين..أخذ العصفور ينظر إلينا ثم يعاود نظره إلى النافذة... نظر إليه محمد ذلك الشاب الذي رباه وناداه... زيكو... زيكو....زيكو... نظر زيكو إلى الحرية..ربما كان يريد أن يعلمنا أن الحرية ليس لها ثمن ولا يمكن أن تقارن بشيء في الدنيا... أو ربما علم حقيقتنا بأننا سجناء بهذا المكان وهو لا يمكن أن يصبر كل هذا الصبر.....وطار زيكووووو....أُصبنا بالذهول....حتى ذلك العصفور لم يعد يحتمل..... اعتدنا عليه ... لقد افتقدناه... ولكنه كان فألاً حسناً أشعرنا هذا العصفور أن مكان الإنسان هو في الهواء الطلق بعيداً عن كل هذه الجدران والحديد... نظرت حينها

إلى الأقفال الحديدية فتذكرت قصيدة كنت قد حفظتها في سجن كفرسوسة الذي قضيت فيه بضعة أيام قبيل أن ننتقل بعدها إلى تدمر وتقول القصيدة:

يا قفل الجوزة...

لم نزنِ.. لم نسرق يوماً أو نأثم.....

يا قفل الجوزة خَبِّرني..

أيجوز بشرعك أن نُسجن؟؟؟»

مرضت مرضاً شديداً حتى أني لم أعد أقوى على السير أو حتى أن أفتح عينيَّ فالتهاب الأعصاب كاد يصل إلى القلب وذاك نتيجة سوء التغذية فالتمس المسؤول الصحي عند الإدارة لنقلي إلى المشفى...

أُدخلت إلى غرفة فيها ثلاثة أسرة..أحدهم رجل في الثمانين من عمره والثاني شاب يعاني من فشل كلوي أما أنا فكنت المعافى بالنسبة لهم..الليل والفئران والألم إنه القسم المخصص للسجناء... أما العجوز فقد تكلم بصعوبة فقال:

- ألم تعرف شيئاً في التاريخ يدعى ثوار حماة بقيادة فوزي القاوقجي...
- بلى إنه الثائر ضد الفرنسيين

«ابتسم العجوز رغم ألمه»وتابع كلامه.

- الحمد لله قد أتى من يعرف من أنا....أنا الساعد الأيمن لفوزي القاوقجي..لدي ولدان قدمتهما للثورة السورية وها أنا ذا أنتظر الموت هنا وأعاني من كسر في الحوض بعد أن انهالـت علي عصا الأوغاد في تدمر... ولكن لا بأس...

في المساء دخل رجل حقير المنظر وقدم للشاب كأساً من زيت الخروع وقال له: اشربها وجهز وضعك للعملية في الصباح الباكر.

- ولماذا الزيت ؟
- اشربها واخرس عندك عملية بواسير غداً.
- بواسير؟؟؟!!!!ـ بواسير؟؟؟!!!! إني أعاني من الكلية وليس البواسير.

فنادى الممرض الحقير هذا الشرطة فجاؤوا وأجبروه على شرب الكأس....

فقلت في نفسي: ياللمصيبة... ترى ماذا سيجبرونني أن أشرب الغد!!

العجوز يعاني ويريد أن يقضي حاجته فجاء شاب من شبابنا من الغرفة المجاورة..كان قوي البنية والشكيمة فناداني لمساعدته..

ثم قام الشاب بقص أظافر العجوز وتغسيله.ثم أعدناه وقد دعا لنا الله كثيراً وبعد يوم تخرج الشاب القوي إلى سجنه وبقيت وحدي لهذه المسؤولية الصعبة.

عدت إلى السجن بعد أن قضيت محنة من نوع آخر... وفوجئت بأن اقتدت إلى زنزانة منفردة... الذهول قد أحاطني وبعد عشر دقائق..ألقي إلي بفراش وغطاء.....أن تقضي أي فترة وحيداً محنة جديدة أخرى... أبعد كل هذه السنين..الجرذان..والظلام.. يومها..بكيت وبكيت وبكيت بصوت عال..صرخت وصرخت.. ليس أحد حولي ولا قربي....وبعد أربعة أيام أتى الشرطي وأخرجني وصعدت إلى حيث جناحي ووقفت فاجتمع علي الأصدقاء:

- أتدري ماذا حصل...
- وماذا حصل ؟؟؟؟
- لقد احتل صدام حسين الكويت!!
- وكيف حصل؟...

لم نكن فرحين إلا لتحدي صدام لأمريكا وكنا حزينين على الكويت وعلى هذا الغباء العربي ... أهكذا أيجب أن يمر طريق تحرير فلسطين باحتلال بلد عربي آخر !!

مرت الأيام ونحن نترقب المناسبات..لعله في هذه المناسبة يصدر عفو وتأتي المناسبة..وتذهب معها أمنياتنا

وذات يوم أعلنت الإذاعة السورية الحداد على باسل الأسد النجل الأكبر للسفاح الكبير حافظ الأسد إثر حادثة سير... الفرح لا يوصف ها هو انتقام الله من الرأس وإن انتقام الله آت لا محالة فليتجهز مَنْ ظلمنا ومن قتلنا ومن سفك دماءنا ومن أمرنا أن نسجد ذات يوم على حذائه ويقول: هذه كعبتكم فاسجدوا وإلا نشنقكم وهذا الشرطي قد وقع في اليوم التالي من أعلى السطح ودُقَّ عنقه... الشرطة مستنفرة..دخلوا علينا اليوم مكفهرين حزينين فالمقبور قد انقبر ابنه قبله..ولاحظوا ابتسامة من أحد الإخوة فانهالوا علينا بالضرب والشتم وكأننا نحن من سبب له هذا الحادث...

بشائر الحرية بدأت تَهلُّ علينا وبدأت الدفعات في الخروج من السجن ومع كل دفعة عرس وأهازيج وعراضات على الطريقة الحموية والحمصية..ومع كل دفعة ننتظر الدفعة التي تليها بفارغ الصبر... ثم انقطع الغيث وجف القلب وجمدت النظرات...

اليوم أكمل السنة الخامسة عشرة.. دمعة عالقة في العين رسمت لها مكاناً أبدياً تعكس الظلم والقهر.. ترسم ذكريات ألم وآلام ذكرى.. يالحقدهم الرهيب على الإسلام والمسلمين..لماذا ؟؟؟إنه صراع الحق مع الباطل..

وضعت البطانية علي وقد استيأست وغطَّيت رأسي وقلت في نفسي: ربما حُكمت مؤبداً... حسبي الله ونعم الوكيل..

وفي اللحظة ذاتها كانت الأبواب تُفتح والأسماء تذاع والكل متلهف وخائف ينظر بأذنيه ويسمع بأذنيه،مترقب اسمه....طريف غنوم....ومع كل اسم كانت الصيحات تتعالى والعناق يشتد والدموع تنهمر.....

وقف مدير السجن معتذراً عن الفترة التي قضيناها..وأن الرئيس قد وهبنا عفوه وأننا سنعود مواطنين صالحين... ثم انتقلنا إلى سجن كفر سوسة حيث بصمنا على الإقرار بحكم الإعدام علينا إن نحن انتسبنا إلى أي حزب أو منظمة تناقض أهداف حزب البعث العربي الاشتراكي...

الباص ينهب الأرض باتجاه مدينة حلب الشهباء... والأناشيد تنطلق من فترة إلى أخرى.. نظرت عبر النافذة فرأيت تمثالاً لحافظ أسد... ماداً يده «لشعبه»... فتمتمت في نفسي لابد أن هُبلَ سيسقط ذات يوم..... قريب بعون الله.

توقف الباص عند دوار الكرة الأرضية..نزلت حاملاً أشلائي القديمة وثروتي من بلاد الجدران العالية... لم أكن أعرف كيف أمشي تتعثر أقدامي ببعضها ولكني أتقدم وأتقدم... وأستعيد قوتي...

وأمشي..بقوة... وإرادة وكلما تعثرت... أستمد القوة أكثر... وأكثر... هاأنا عدت يا أمي... والشيب قد ألقى راياته البيضاء علي بعد خمسة عشر عاماً.....هاهو القمر سيطل من نافذتك مرة أخرى.....

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في السابع عشر من شهرآذار عام خمسة وتسعين وتسعمائة وألف وقفت أمام باب منزلنا مرتجف اليدين أهو هو؟؟

هل هم هنا؟؟؟

هل سيعرفونني بعد كل هذه السنين؟؟؟

أمد يدي إلى الجرس ثم أعود بها لأتحسس نفسي: أهو أنا؟ هل أنا عدت فعلاً أم أنني أحلم أهي الحقيقة؟

ضغطت على الجرس وقلبي ينتظر المفاجأة... أرتب الأحرف كما لو أنني أستعيد القدرة على الكلام من جديد.

حركة خلف الباب... الباب ينفتح

رجل في الأربعين من العمر يطل برأسه علي.

- من أنت وماذا تريد ؟

لابد أني أخطأت في العنوان ولكن العنوان هو هو ما برحت ذاكرتي تعيد وتكرر به طوال خمسة عشر عاماً هل يمكن أن أكون قد تهت عنه.

كرر الرجل سؤاله بنبرة حادة

- أليس هذا منزل أحمد غنوم؟
- لقد انتقلوا من هنا منذ خمسة أعوام.
- لا تؤاخذني... كنت مسافراً

أغلق الرجل الباب وعدت ألتمس بيتاً أعرفه من أقربائي... ازدادت رباطة جأشي قليلاً حين ضغطت على الجرس هذه المرة....

وبعد قليل انفتح الباب وأطل زوج خالتي.

- مين حضرتك بلا صُغْرة
- ألم تعرفني؟؟
- عرّفنا
- أنا طريف.

انفتحت عيناه المغمضتان من النعاس وحَضَنني وهَلَّلَ وكبّر ورحب وأيقظ عياله.

وفي هذه الآونة كانت والدتي ترى في منامها أن قمراً اقترب من نافذتها ورويداً رويداً اقتحم النافذة ووقع في حضنها فاستيقظت وأيقظت والدي وقالت له:

- طريف خرج....

ووالدي يقول لها:

- طولي بالك يا امرأة.

وبينما هم على هذه الحال رنّ الهاتف، كانت خالتي تحدثهم أن هناك صديقاً لطريف وصل عندنا ويريد أن يقابلكم.انطلقنا بالسيارة إلى بيت أهلي وهم تجهزوا للانطلاق إلينا.....

والتقينا..... أنا دمعةُ فرح اتسعت لتملأ الدنيا وهم دنيا من دموع الفرح، والتقى البحران هذا عَذْبٌ فرات وهذا عذب فرات.....

واشتبكت العيون تتفحص القادم الجديد وتتفحص السنين وما فعلت بالملامح والقسمات.....الشاب المتَّقد عاد بشيبه حاملاً آلامه وأحزانه تحت إبطيه... عاد بذاكرة محشوة بصيحات الألم...

لم أتعلم بعد كيف أمشي....هذا الرجل الثلاثيني... يتعلم أن يخطو من جديد..... يتعلم... كل شيء من جديد... ويتعرف على كل شيء من جديد....

الطريق طويل... وخطواتي ثقيلة ثقيلة..... والغربة تلفني.... فأزوي إلى سريري وأعود أبكي وأبكي..... ولا أدري لماذا...

ألأن الزمن قد أطاح بي ورأيتني قادماً من زمن بعيد أم أنها الغربة بين الأهل والأحبة...

مشيت متكئاً على خفقان قلبي بين نبضتين قاتلتين؛ نبضة الذكرى المضرجة بآلام أمة ونبضة الغربة الخانقة... متمتماً والدمع قد غزا مقلتي:

غرباء....غرباء وليس بدعاً... فهذا قدر الحر في بلاد العبيد

غرباء والكون يهتز شوقاً..... لرؤانا في كل فجر جديد.

غرباء.....غرباء

# المحتويات


| | |
|---|---|
| إهداء | ٥ |
| تمهيد | ٦ |
| اليوم الأول | ١٣ |
| اليوم الثاني | ١٧ |
| اليوم الثالث | ٢١ |
| اليوم الرابع | ٢٥ |
| اليوم الخامس | ٢٧ |
| اليوم السادس وحتى العاشر | ٢٨ |
| **الشهر الأول** | ٣٥ |
| الشهر الثاني | ٤٧ |
| مهجع (٣٢) | ٦٤ |
| الشهر الأول | ٦٥ |
| الشهر الثاني | ٦٨ |

الشهر الثالث ٧٥
الشهر الرابع ٨٥
الأشهر الخامس والسادس والسابع ٩٣
المهجع (٣٧) ١٢٠
مهجع (٢٨) ١٤١
المحتويات ١٧٥